عندما تزهر البنادق

(دير ياسين)

بديعة النعيمي

عندما تزهر البنادق

(دير ياسين)

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى جميع الذين أزهرت بنادقهم

في 9 نيسان 1948

القسم الأول

قال لي جدي:
لا تثقي بالذاكرة كثيرا..
فقد تخون صاحبها يوما.....

(1)

وقفَتْ أمام النافذة والتي يصل طولها للأعلى قرابة المترين، تبحلق بذلك البركان الذي كان يتململ ويستعد للثوران، ارتعدت أوصالها وتراجعت للخلف خطوتين، أدارت ظهرها للنافذة وأسرعت نحو سريرها واندسَّت أسفل الغطاء، وغطّت رأسها بعد أن دفنته في الوسادة، وبعد وقت ليس بالطويل هدأت، سحبت يدها الهزيلة من تحت الغطاء وتحسّست خدّها الأيسر، وعندما أحسّت بالوحشة أعادتها داخل الغطاء، كوّمت يديها بين فخذيها وتكوّرت كجنين، تذكرت ذلك البركان فانكمشت على نفسها أكثر علما بأنّ هذا البركان لم يكن سوى بركانها الذي كان دائم الثوران بداخلها والذي تجاوز قطره عمرا كاملا من الألم والخيبات.

ناداها صوت خافت كأنه قادم من مجرة أخرى، فأصاخت السمع وضغطت أذنيها بكفيها، وكتمت أنفاسها على أمل الوصول إلى تلك الكلمات التي كانت غالبا ما تتردد على مسامعها، فربما لو استطاعت التقاط واحدة منها لكانت استعادت نفْسها التي ضاعت منها، لكن بؤسًا لذلك الفراغ الذي كان قادرًا على امتصاصه كإسفنجة لئيمة.

تردّد الصوت مرة أخرى وكأنه يصرُّ هذه المرة أن يوصل لها شيئا ، ظلّ يحاول حتى تمكنت أخيرا من تمييز كلمات جاءتها متقطعة كأنها تخوض معركة من الكرّ حينا ومن الفرّ أحيانا كثيرة.

ستصبحين معلمة مثل عمّك!!

تساءلت.. من هو عمي... صرخت، من أنا.. من أنا! ولمن هذا الصوت الذي يصرُّ على زيارتي ويسبب لي الألم كلّ حين؟

إنه صوت يأتي من عمق ربيعها القصير، تأتي به أنصاف ذاكرتها مع الكثير من الصور المتحركة لأفواه تتمتم، لعيون تترقب، لأقدام تجري مسرعة وتترك وراءها كل شيء، لصور تسقط وتتناثر شظايا في متاهات معتمة، صراخ وعويل، ثم يتوقف كلّ شيء وكأنَّ شيئًا لم يكن.

تتلاعب بها الذاكرة حتى تعيدها إلى عالمها المكوّن من غرفة تحوي بداخلها سريرها ووسادة ملّتها، وغطاء هو بالنسبة لها أمان تلتجئ إليه كلّما قست صور تلك الذاكرة المعطوبة عليها، والتي طالما أصابتها بالدوار فتشعر حينئذ كأنها تؤدي رقصة مولوية في إحدى الحلقات الصوفية، فتدور وتدور على نفسها حتى تبدأ بإطلاق صرخات قوية كأحد المجاذيب وقد أخذه الحال، فتهتز جدران المصح، وفي نهاية المطاف الصعب ككلّ مرة تقع فريسة بين يدي الممرضات وحقنة قادرة أن تدخلها في نوم قد يستمر لليوم التالي.

(2)

(يمه) يا زينب هاتي ما تبقى من شوال القمح والحقيني به عند الطاحونة فبعد قليل يصل أبوك وأخوك من الحقل، قالت أم سالم التي تخلفت عن الذهاب فجر هذا اليوم إلى المخبز لخبز صينية العجين بسبب الزكام الذي أصابها يوم أمس جراء عملها في الحقل وسط برودة شهر شباط..

(يمه خليني أدرس شوية..)

فتجيبها أم سالم بأنها (ملحقة) على الدراسة، فتضطر زينب وهي تتأفف إلى وضع القلم داخل الكتاب الذي انهمكت في مراجعة إحدى دروسه، ثم تغلقه وتضعه في حقيبتها الجلدية لتلحق بأمها قبل أن تقصف رأسها بشتيمة من العيار الثقيل.. (أكيد فأم سالم ما معاها مزح..).

اجتمعت عائلة أبو سالم (ربحي) حول سفرة الغداء يتوسطها الجدّ الحاج أسعد، وأولاده بكر وأيوب وأبو سالم وزوجته وأولاده سالم وزينب والصغيران جمال ومحمد.

أبو خالد (محمد) هو الابن الثاني للحاج أسعد وقد كان متزوجًا ومنفصلاً في بيت يقع مقابل بيت العائلة الكبير ولم يرزقه الله سوى ابنتين هما نجوى الكبرى، وجميلة الصغرى.

أكرم هو الابن الأصغر والأقرب لأبيه الحاج أسعد كان الوحيد الذي أكمل تعليمه في العائلة، ويحمل درجة الدبلوم في مادة التاريخ من كلية القدس، يعمل مدرسًا في إحدى مدارس يافا.

أكرم كان القدوة العظيمة لزينب بعد جدها، والتي لم تكن قد تجاوزت السبعة أعوام، كان يوم عيدها عندما يعود نهاية عطلة الأسبوع حاملاً في جعبته الكثير من الأخبار التي كانت تدهشها، فقد كان حلقة الوصل بينهم وبين العالم الخارجي، فيافا كانت مدينة ضخمة جدا وفيها ميناء بحري بخلاف دير ياسين القرية البسيطة، وكان قد أخبرها عمّها ذات يوم بأن يافا اسم كنعاني ويعني المنظر الجميل، لذلك كانت نفس زينب ترنو دائما لزيارتها للاستمتاع بجمالها والتجول بالقرب من مينائها الضخم.

بكر قصته مختلفة كثيرًا عن بقية أفراد العائلة، إنه الابن البكر للحاج أسعد تخطى النصف قرن، لم يتزوج، كانوا ينعتونه ببكر البركة، دائم التجوال في القرية ، قوي البنية، فارع الطول، مع صلع زار مقدمة رأسه وسرق أكثر شعرها، يستيقظ قبل الجميع ويخرج قبل أي فرد في العائلة، قد يمضي معظم النهار خارج البيت، لا أحد يعلم أين وكيف كان يمضيه، وإذا ما تمّت مشاهدته فيكون جالسًا على تلّة عالية في القرية مصوّبًا أنظاره نحو القدس متّخذًا وضعية القرفصاء وعادة ما يشغل نفسه برسم دوائر بسبابته في الهواء، لعلّه كان يرى ما لا يراه الجميع، لا يهتم بمظهره رغم اهتمام العائلة به.

أيوب الابن الرابع للحاج أسعد كانت الشمس قد لوحت وجهه وذراعيه بسمرة سميكة، وأما الشيء الذي كان يلفت نظر زينب فيه دائما، شارباه الكثيفان اللذان أخفيا أسفلهما شفة عليا يمكنها رؤية العالم فقط عندما كان يتكلم ماطًّا إياها للأمام، فتظهر على شكل خط رفيع يختفي حالما يسكت، وكان يمتلك شاحنة لنقل ثمار الليمون واللوز وغيرها من الثمار التي تطرحها كرومهم على مدار فصول السنة من القرية لبيعها في

القدس، قال بأنه لن يتزوج زواجا تقليديا إلا إذا التقى بحب حياته، وكثيرا ما كان الحاج أسعد يشتمه ممازحا له.

(حبك برص يابه يا أيوب والله إلا تختير قبل ما تلاقي حب حياتك وتقطع شرشك بإيدك..).

فتعلو ضحكة أيوب وتزلزل جدران الديوانية.

غالبًا ما تجتمع عائلة الحاج أسعد بعد صلاة المغرب في الديوانية الكبيرة، ولا يسمح لأحد بالتخلف عنها، فالرجال يجتمعون فيها، أمّا نساء العائلة فيجلسن في غرفة مخصصة للنساء، وتتحلق الصبايا حولهن، عائلة مستقرة متكاتفة تحبّ بعضها البعض كما باقي عائلات قرية دير ياسين.

(3)

نظرت صباحًا إلى السماء من النافذة المحكمة الإغلاق، رذاذ لطيف ينزلق بخفة من السماء يقدم اعتذاراته للأشجار بعد أنْ قام مطر الليلة الماضية الغزير الغاضب بكسر أغصانها الضعيفة، راقبتْ المشهد جيّدًا وما هي إلا دقائق قليلة حتى توقف الرذاذ بعد أنْ أدى مهمته، تبعثرت الغيوم وظهر وجه الشمس فأرسل خيوطه الذهبية نحو الأرض وإذ بقوس قزح يتمدّد في حضن السماء ويستعرض جمال ألوانه، حدقتْ به جيدًا ولم تصدق ما رأت! لقد رأت به وجه قريتها بكل تفاصيله، استطاعت رؤية صور لأناس ولبيت هي تعرفه جيدا، أسعفتها أنصاف الذاكرة فتذكرت شيئًا وانتفضت تحدث نفسها باندهاش.

إنها أمي وهذا أبي وهذه الجدران ليست غريبة علي، إنه بيتنا، وها هو مقعد جدي، فرحتْ كثيرا، ثم ضحكتْ بصوت عالٍ حتى كاد شدقاها يتمزقان، قفزتْ للأعلى، لقد تذكرتْ، وكررتها، تذكرتْ، لكن اسمي! ما هو اسمي... لم تستطع تذكره لكنها بالرغم من ذلك فقد سعدت بما أسعفتها به الذاكرة من صور، وفي عزّ سعادتها شاهدتْ نارا قادمة من بعيد، تتجه نحو بيتها، وكم كانت سريعة الخطى لئيمة الاجتياح، تطاول الغيوم في السماء، كأنها ثعبان له عدة رؤوس يطير لينقض على حمل صغير وادع يلهو في مرعاه المعشب، صرختْ..

(ابتعدي يا أمي، انتبه يا أبي البيت سيحترق)

لكنّهما لم يسمعا نداءاتها المتتالية فكلّ منهما كان منهمكًا بعمل يقوم به، ولم يُعرْها أيّ اهتمام، اقتربتْ ألسنة النار من البيت أكثر حتى وصلتْ بوابته الخارجية، كانتْ جريئة وقحة فهي لم تستأذن عندما ألقت بنفسها داخل الفناء، وبدأت بالتهام ما امتدتْ ألسنتها إليه حتى وصلتْ إلى أمّها وأبيها، رأتها تنشبُ أظفارها بجسديهما بكل وحشية، رائحة شواط تتسرّب إلى أنفها فيكاد يغمى عليها، تتابع المشهد الذي يصيبها بالغثيان، تشاهدهما ينازعان الروح أمامها وهي مكبلة لا تتمكن من الوصول إليهما، تراقبهما وهما يتشبثان بتراب الأرض يهيلان منه على جسديهما، فتتشبث معهم، تحاول فتح النافذة اللعينة، وتلعنها عندما تعجز، تحفر الجدران بأظافرها حتى تتكسر فتنزف أطراف الأصابع دماء القهر والعجز، يرقص جسديهما من الألم، فتبدأ بممارسة رقصتها الصوفية وسط ألسنة النيران وتعتلي أصوات الدفوف وصرخات الحاضرين، أصوات تصمّ أذنيها، تتوقف فجأة عن الرقص، تتحسّس جسدها ، لا أثر لأيٍّ حروق، تعود إلى المشهد وقد انتهى واختفت القرية بمن فيها وسط ذلك الدخان المتصاعد وصمت كصمت القبور، فتصاب بنوبة هستيرية، تصرخ وتشدّ شعرها حتى تنفصل خصل منه تلتصق بدماء أصابعها التي لا زالت تنزف، تنهمر على ركبتيها وتبدأ بضرب رأسها بأرض الغرفة.. (أبي، أمي، لا تذهبا مرة أخرى، ألم تتركاني في المرة الأولى، أرجوكما لا تموتا للمرة الثانية ؟؟).

فإذا بصوت خطوات تتسارع وتتحول إلى هرولة، يفتح باب الغرفة، يحاولن الإمساك، لكنّها تقاومهن بذراعيها اللتين كانتا تتحركان كمروحة مجنونة، هدأت عندما لطمتها إحداهن على وجهها، ثم قمنَ بجرّها نحو السرير، وبسرعة البرق كانت الحقنة جاهزة، فتلقاها الجسد المنهك وهو

كاره لها فغابت عن الوعي تاركة خلفها ليلها الطويل يزيل الرماد عن جمره ويعلن حالة الحداد.

(4)

آذار (1920)

ذاكرة الوطن محشوة بالتواريخ الساقطة.....

كانت نسمات شهر آذار لا تزال تحتفظ بشيء من برودة الشتاء، وكما يقال (برد آذار بقص المسمار) لكن ديوانية الحاج أسعد لا تعترف بالبرد فقد كانت دافئة بمحبة الأولاد والتفافهم حول أبيهم واجتماعهم بها بعد صلاة المغرب من كل ليلة.

أصواتهم كما باقي أصوات أهل دير ياسين تطرب لها سماء القرية لأنّ هذه الأصوات كانت تعني بأن هناك حياة بالرغم من الأحداث التي توالت على أرض فلسطين منذ إنشاء مدينة تل أبيب شمالي يافا في ذلك التاريخ الساقط لعام 1909م، إلى تلك الضغوطات التي كانت أوروبا تمارسها على الحكومة العثمانية للسماح للصهاينة بالحصول على أراض من فلسطين، إلى ذلك العام الأصعب والذي دخل به الجنرال اللنبي إلى القدس عام 1917م بعد استسلام القوات العثمانية، إلى ذلك العام المسعور الذي تم به احتلال أراضي فلسطين من قبل القوات المتحالفة بقيادة اللنبي...

بالرغم من تلك الخيبات المتتالية إلا أنَّ شيئًا لا زال يوحي بوجود أمل في نفوس أهل قرية دير ياسين الوادعة، الحالمة، التي تغفو على جدائل القمر الفضية لتستيقظ في الصباح على روائح الأرض التي يتمسك أهلها بها

ويزرعونها، فتقابل الإحسان بالإحسان وتطرح أنواعًا كثيرة من الثمار خلال فصول السنة، وما دام الأذان يصدح في المنابر، فإنّ فلسطين وأهلها بخير كما كان يقول الحاج أسعد وهو يمسك غليونه المصنوع من خشب الأبنوس ويحشوه بالتبغ بخفة وفنّ، ثم يشعل عود الثقاب ويترك الكبريت يحترق لثوان قبل أن يبدأ بتحريك اللهب دائريًّا حول سطح التبغ مع سحب أنفاس طويلة وعديدة من الغليون، فتدور عينا زينب أيضًا بشكل دائري تلاحق حركات جدّها التي طالما شدت انتباهها، فكم مرة رجته بأن يسمح لها بشفطة واحدة أمام رفض شديد منه، ثم يغمزها فتفهم بأنه سيعطيها هذه الفرصة لكن عندما يختلي بها، فتبتسم ابتسامة ماكرة وتكتفي بالمراقبة..

فاحت رائحة الشاي المطعم بالميرمية في ديوانية الحاج أسعد وقد اختلطت برائحة التبغ المتسربة من غليون الحاج أسعد وضجت الأجواء بأصوات الأبناء.

(شو آخر الأخبار يابه يا أكرم)

وكان صوت الجد عاليًا (ما شاء الله) يسمعه من في الخارج ، فما أن سمعت زينب التي كانت تتسابق مع ابنة عمها جميلة في فناء البيت حتى انسحبت بسرعة، واتخذت لها مكانًا أسفل نافذة الديوانية التي تفتح مباشرة داخل الفناء، فألصقت جسدها بالجدار وأذنها بحافة النافذة التي كانت عالية بعض الشيء، هدفها تلك الأخبار التي يحملها عمّها القادم من يافا.

وقفت على رؤوس أصابعها ومطّت جسدها لتقترب أكثر من النافذة، والتي من حسن حظها كان عادة ما يُفتَح جزءٌ منها لتتسرب رائحة التبغ

التي كانت تعلو في سماء الغرفة، غيومًا كثيفة تتزاحم وهي تهم بالخروج من ذلك الجزء الضيق.

كان جدها قد بدأ يحشو غليونه للمرة العاشرة حين أخبرهم أكرم بأن بريطانيا قامت بعزل موسى الكاظم عن رئاسة بلدية القدس، فانتفض الجميع لمشاركة الجدّ ردة فعله عندما قال:

"بأنهم متمسّكون بأرضهم بدءاً من صغيرهم الذي لا زال في (اللفة) إلى كبيرهم، وأن كاظم باشا من الرجال الشرفاء الذين لم ولن يقبلوا يوماً بأن يكون من أولئك الذين يمالئون بريطانيا والصهيونية."

في خضم هذا الحديث المهم وانهماك زينب باستراق الأخبار، يعلو صوت محمد الصغير بالبكاء، فتنادي أم سالم.

(يمه يا زينب شوفي أخوك ليش ببكي)

زينب تضع في الأذن الأولى طين وفي الثانية عجين وتتجاهل صوت محمد ونداء أمها، فكيف لها بأن تترك حوارا مهما بالنسبة لها، وهي التي كانت تنتظره من الأسبوع للأسبوع، فتقول في نفسها:

(لا لن أضيعه من أجل محمد، إلا إذا شدّدت أمي) فتكون قد تجاهلت النداء الأول والثاني، أمّا الثالث فلن تستطع لأنها ستتلقى قذيفة سريعة وذات مفعول قوي تشبه الحذاء.

نسيت أمها أمرها قليلاً عندما أخذ محمد هدنة قصيرة وسكت عن البكاء.

كان الحديث السياسي داخل الديوانية قد انتهى وانتقل الجدّ وأولاده إلى مناقشة أمور الكروم وغيرها، وحين انصرفت زينب لإكمال لعبتها مع ابنة

عمها، بدأ يعلو صراخ أخيها مرة أخرى، فإذا بالقذيفة تمر بسرعة فائقة من فوق رأسها ولولا لطف الله بأن أخفضت زينب رأسها لكانت دخلت في غيبوبة لمدة أسبوع، إذ أصبحت أكثر براعة في تلافي ضربات من هذا النوع من أمها التي كانت تسدّد جيدا ولا تخطِئ هدفها.

انتهت السهرة في بيت الحاج أسعد وأُخفت السراج فيه.

غطّت العائلة في نوم غير مريح بسبب ذلك الخبر السيِّئ بشأن موسى الكاظم، إلا زينب التي لم تستطع النوم في بداية الليل، فقد ظلّ صدى كلمات عمّها يتردد على أذنيها، ولما سرقها النوم من اليقظة حلمت بأفعى ضخمة تزحف نحو القرية، ولما اقتربت فتحت فاها الواسع والذي يتسع لقريتها بالكامل، صرخت واستنجدت بعمها بكر الذي أسرع إلى اقتلاع صخرة ضخمة، وألقى بها نحو تلك الأفعى، أخطأتها لكنها أجبرتها على التراجع للخلف واختفت بين الكروم، فاستيقظت أمها على صوت صراخها.

(مالك يمه؟ بسم الله عليك أعيذك بالله من شر الوسواس الخناس)

أحضرت أمّ سالم لابنتها كوبًا من الماء ورقتها بالمعوذات، فهدأت ونامت.

(5)

انتفضت من نومها وسحبت نفسها من تحت الغطاء، جلست وأسندت ظهرها على راسية السرير ومدت ساقيها ووضعت الوسادة على قدميها، وأخذت تهدهد وتغني، غنت بقايا لكلمات أغنية لا تزال عالقة في ذاكرتها...

ننّي يا عين بنتي يا عين الحمام

بنتي بدها تنام عاريش الحمام.....

ظلّت تغني حتى أنهك صوتها، كما وهزت الوسادة التي اعتلاها الفراغ إلا من الهواء، وهدهدت طيفًا لطفلة، هي لا تتذكّر من تكون لكنّها قالت كلمات تعودت على قولها طويلاً وقامت بحركات أيضًا تعودت على فعلها لأعوام. بكت كثيرا والدموع الصادقة لا تكذب، وهل أصدق من دموع الالتياع؟!

ظلّت على هذا الحال لوقت طويل حتى انتفخ المشهد وطفا على سطح ذاكرتها الهشّة، فكانت كما لو أنّ جثة غرقت فتسرب الماء داخل خلاياها فانتفخت وأصبحت أخيرا كبالون يستعد للانفجار في أية لحظة، والنتيجة شظايا تدمي جسدها الهزيل، لكن لا دماء في المشهد، لأنَّ الدماء قد سافرت منذ زمن بلا رجعة، فقط ستنتشر روائح في الأرجاء، ستصيبها بالغثيان وتحرض المعدة على إفراغ حمولتها، عندها فقط ستنتعش الذاكرة وتعود لتمتلِئ بذاك المشهد الأصعب (جثة متعفنة بين ذراعيها).

تبدأ بالصراخ، وتصرخ إلى أن يوقظ صراخها مجانين المصحّ، فيبدأون يومًا جديدًا لم يعلن الكون عن بدئه بعد.. فيتكرر مشهد الممرضات والحقنة.

(6)

نيسان (1920)

ها هو نيسان يصل محمّلاً بالكثير من المتناقضات، زهر يتفتح وروائح تبعث الراحة في النفوس إلى صفقات ساقطة سوداء تورق فيها وتزداد أشجار الغردق التي تخفي خلفها خبث بريطانيا واليهود، فها هو المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح في سان ريمو يعهد إلى بريطانيا مسؤولية الانتداب على فلسطين دون استشارة أهلها، غصات كثيرة وخيبات أكثر وفلسطين تزداد جراحها، تحاول جاهدة تضميدها لكنها لا تستطيع.

أم سالم تجلس مع الجارات اللواتي يحلقن في دائرة غير مكتملة طلبًا لدفء شمس نيسان التي لا تزال تشرق في سماء دير ياسين وتهدي ضياءَها ودفئها، فالشمس لم تخن الأرض يومًا.

نسيت النساء الحديث المعهود لهن وبدأن بحديث لم يتعودن قبل هذا اليوم أن يخضن فيه أبدا، فطالما كانت أكبر همومهن الغسيل والطبخ وهمّ الأولاد والأزواج، ولم تكن السياسة لتعني نساء بسيطات كنساء دير ياسين يومًا.

اليوم الجلسة اختلفت عن سابقاتها فقد بدأن بالكلام عن الحدث الأخير الذي زلزل قلوب البسطاء قبل أن يزلزل قلوب الساسة.

فكيف لأناس جاؤوا من شتات الأرض أن يتحكموا بأصحاب الأرض الأصليين؟ أناس تحكمت بأيديولوجيتهم كتب خطتها أيدي

حاخاماتهم على أساس عنصري، ونظرة فوقية عندما ادَّعَوا بأنهم شعب الله المختار.

وبينما كان أولاد وبنات الحارة يمارسون طفولتهم باللعب ، كانت زينب قد زرعت نفسها بجوار أمها، هي تعلم بأنها لن تحصل على معلومات جديدة من الجارات إنما جلست حتى لا تفوت فرصة (فرد عضلاتها) بتصويب ما قد يُرتَكب من أخطاء.

فعندما قالت زوجة عمّها أبو خالد (إنّ الإنجليز سوف يحكموننا!)

صوبت زينب نظرها نحو أمها وقالت:

(هذا بيسموه انتداب، هيك قال عمي أكرم، مش هيك يمه؟)

وتابعت زينب في نظرة مسحت بها ردة فعل الجارات (وقال كمان بأنوا هاذ الانتداب هدفه أنو بيعطي فلسطين لليهود)

هزت أم سالم رأسها بالإيجاب، فشعرت زينب بالزهو والنساء يتفحصنها وينظرن إليها بإعجاب.

فقالت إحدى الجارات مبدية إعجابها بزينب (والله يا أم سالم بنتك شاطرة ما شاء الله عنها)

فجأة وأثناء انهماكهن بالحوار المهم، فتح باب بيت الحاج أسعد ثم صُفق بعنف، فنطّت أمّ سالم من مكانها.

(يا ساتر شو صار؟)

فإذا ببكر يحمل عصا ويهرول مبتعدًا عن البيت. تركت زينب الجلسة ولحقت بعمها

(يا عمي استناني خذني معك)

لم يلتفت بكر إليها إنما حثّ الخطى نحو مسجد الشيخ ياسين، أمّا زينب فلم يكن اليأس يعرف طريقًا لها فقد ظلّت مصرّة على اللحاق بعمّها لتعرف ما الذي يريد فعله، ولما خرج مسرعًا بهذا الشكل اللافت، اقترب من المسجد، وقف أمامه وبعد أن وضع العصا أرضًا رفع يديه وتمتم ببعض كلمات لم تتمكن زينب من سماعها ثم دخل وجلس بجانب الضريح، وبعد وقت قليل خرج واختفى خلف شجيرات المسجد، وعندما لحقت به لترى ما الذي سيفعله لم تجده، فقفلت عائدة إلى المنزل، مخذولة لأنها لم تُرض فضولها. وعندما وصلت كان مجلس النساء قد انفضّ ويبدو بأنّ كلّ واحدة ذهبت لأشغالها.

قالت زينب وهي تقهقه بصوت منخفض يبدو بأنَّ السياسة لم ترق لهن لأنَّها (ما بطعمي عيش).

فتحت باب البيت فلمحت جدّها أسعد يجلس على مقعده الحجري أسفل زيتونة البيت ويدخن التبغ بغليونه الأبنوسي، قالت في نفسها إنها فرصة لا تعوض لتجربة الغليون، اقتربت منه وقد كان مستغرقًا بالتفكير منهمكًا بالتحديق في شيء ما تحديدًا على تلك المنحدرات البعيدة، فسألته:

هل أخمن إلام تنظر يا جدي؟ وواصلت، (إذا عرفت بتعطيني شفطة)؟

فحوّل نظره نحوها وقال وهو يضحك (طيب يا عفريتة، خمني تشوف)..

(الله أعلم يا جدي بأن نظرك وصل لتلك الصبارات التي تتكِئ على طرف المنحدر!!)

وهنا قهقه بصوت عالٍ وجذبها نحوه وقال..

(بتستاهلي شفطة وكمان رايح أغطي عليك حتى أمّك ما بتشوفك...)

ناولها الغليون فسحبت نفَسا، لكنّها أعادته لجدّها بسرعة ووضعت يدها الأخرى على صدرها وأمالت جذعها للأمام وبدأت تسعل بقوة.

(الله لا يعطيك العافية) قال الجدّ الذي طبطب بخفة على ظهرها لتتخلص من السعال بسرعة، ولما هدأت بدأت تكركر وجدّها يشتمها على فعلتها.

بعد صمت ساد بينهما، سألت جدها عن قصة الصبارات! فأجابها بأن تينك الصبارات الصامدات يذكرنه بصمود أهل فلسطين فهن متمسكات بأرضهن رغم ظروفهن الصعبة على تلك المنحدرات.

فسألته (طيب يا سيدي احكيلي هم الصبارات ما بيستوحشوا وهم جالسات هناك لحالهم؟)

ضحك الحاج أسعد وقبّل حفيدته وسار بخطوات سريعة نحو الديوانية.

نادت زينب (ما جاوبتني يا سيدي)

لم يلتفت إليها واكتفى برفع يده للأعلى وقال: (بس تكبري بتعرفي الجواب لحالك)

(7)

نهضت مفزوعة من نومها ولم تكن خيوط الفجر قد بزغت بعد، فانتزعت جسدها النحيل من تحت الغطاء الذي جثم فوقها كجبل، توجهت نحو النافذة، متنفسها الوحيد وحلقة الوصل بينها وبين العالم الخارجي وكانت قد نسيت رائحة الفصول، أمّا ألوانها فكان الزجاج يشي لها بها على مدار تبدلها، تنشطت ذاكرتها ذلك الصباح فاستطاعت استحضار ذلك الحوار مع جدّها، في ذلك الصباح البعيد عندما لاحقت عمّها بكر ولم تفلح وقتها بمعرفة أين يذهب وماذا يفعل، فعادت إلى البيت ووجدت جدّها يجلس على مقعده تحت زيتونة البيت يدخن التبغ فكشفت البعيد الذي كان يحدق به فاستطاعت الحصول على شفطة من الغليون.

حدثته كأنه يقف أمامها فقالت:

أتذكر يا جدي عندما سألتك إذا كان الصبار يشعر بالوحشة لوحده، فكان ردّك أنّني سأعرف الإجابة عندما أكبر، ها أنا قد كبرت يا جدي، كبرت كثيرًا ولا زلت أجهل الإجابة، فأخبرني الآن، هل يصمد الصبار بعدما غاب أهله؟ هل قتلته الغربة مثلما قتلت البيوت التي بقيت لوحدها؟ أم تراه انتحر كحصان كسرت رجله؟

لِمَ لا تقترب مني يا جدي فحتى أنا قتلتني الوحشة والغربة؟ اقترب فقد اشتقت كثيرًا إلى رائحة جسدك، احضني يا جدي فجسدي بارد، بارد حدّ الموت.

آه لو تعلم كم هو طويل الليل على أمثالي، أتدري بأنني دائمة التحديق به، فطالما رأيته وقد تكوم أمام قريتنا ينتظر عودتنا ويطيل الانتظار، لكنه عندما يصل إلى مرحلة اليأس يمضغ الأمل المهيض في مسامات وجهه القاتم ثم يلقي به في دوامات ذلك الفجر الرمادي.

هيّا وأخبرني يا جدي ماذا يعني الليل الطويل اليائس لمن هم مثلي، اقترب مني أرجوك، لا تخف لن أزعجك فقد كبرت ولم أعد تلك المشاكسة.

تَخَيَّلتْه يقترب منها، فردت ذراعيها في الهواء لتستقبل دفء جسده، لكنه تجاوزها وتلاشى طيفه، فصرخت:

(ولِمَ تتركني يا جدي والله إن جسدي بارد؟ لِمَ تتخلى عني يا حبيبي؟؟..)

تجاوز صراخها الممرات حتى وصل إليهن، ففتح الباب على عجل ليعاد نفس المشهد، الممرضات والحقنة.

(8)

مطلع شهر أيّار (1921)

بعض التواريخ هي بمثابة قنابل موقوتة تنهار أمامها قلاع.

انتهى عام ألف وتسعمائة وعشرين وكانت أذياله محملة بالمرارة، فقد تمّ تعيين إدارة بريطانية مدنية في شهر تموز، واختير السير هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني أول مندوب سام لبريطانيا، ولم يكن شهر آب بأفضل من تموز ففيه شرب الفلسطينيون مرارة الكأس لأول قرار بريطاني بشأن الهجرة اليهودية بحيث سمح بدخول قرابة الستة عشر ألف مهاجرٍ يهوديٍّ بالرغم من وجود معارضة قوية من قبل الفلسطينيين، لكن بريطانيا دائما ما كانت تضرب معارضتهم بعرض الحائط، فعقد الفلسطينيون عدة مؤتمرات رفضوا من خلالها الاستيطان اليهودي وسياسة الانتداب الجائرة والتي دائما ما كانت تصبّ في مصلحة اليهود... ففلسطين لم تكن تحت انتداب دولة بريئة إنما تحت سياط حكم عسكري ما وجد إلا لخدمة مصالح صهيونية بحتة.

مرّ الأسبوع الأوّل ولم يأت أكرم كما العادة، الأمر الذي أقلق الحاج أسعد وبقية أفراد العائلة الذين اعتادوا على وجوده معهم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وبالذات زينب التي كانت تنتظر مجيئه بفارغ الصبر.

عاشت العائلة أيّامًا من الخوف الشديد بعد مرور أيام من الأسبوع الثاني الذي تلا الهجرات المكثّفة لليهود، ووصولهم عن طريق ميناء يافا، فامتص غياب أكرم كلّ تفاصيل السعادة..

وحده بكر الذي لم ينتابه القلق على أخيه فكان يقول لأبيه:

(ما بتشوفه إلا عندك يابه)

فيرد الحاج أسعد (ربنا كريم يابه).

ومع نهاية الأسبوع الثاني عصر يوم الخميس جاءت زينب مسرعة نحو جدها، فقالت وقد تقطعت أنفاسها من الركض:

(إجا عمي أكرم يا سيدي، والله إجا)

فانطلق الحاج أسعد ليتأكَّد من الخبر الذي ألقت به زينب في وجهه، فكان كقميص يوسف، فإذا بأكرم يحمل حقيبته ويحثّ الخطى نحو بيت أبيه، ظلّ الأب الذي هدّه الخوف على ولده واقفًا أمام البيت ويذرف دموعًا صامته مسحها بطرف أصابعه.

قال الحاج أسعد بصوت سمعه كلّ من في الحارة:

(يا حيا الله باللي طول الغيبة، يا هلا فيك يابه يا أكرم)

عادت الحياة تنبض من جديد في البيت الكبير، فكانت الديوانية تلك الليلة عامرة بأبناء الحاج أسعد والجيران الذين جاؤوا للاطمئنان على أكرم والتهنئة بسلامته وقد كانوا دائمي السؤال عنه أثناء غيابه (أكيد فأهل دير ياسين كانوا كالعائلة الواحدة فينطبق عليهم المثل القائل، المرء بالإخوان واليد بالبنان).

تعمد أكرم أنْ لا يحدثهم عن الاضطرابات التي حدثت في يافا احتجاجًا على الهجرة الجماعية اليهودية، حيث نفذ عدد من الشباب كان هو من بينهم عمليات، قُتِل من خلالها عدد ليس بالقليل من اليهود وجُرِح الكثيرون. فلو علم أبوه بذلك لما سمح له بالعودة مرة أخرى إلى يافا، فبعض الأمور يجب أن تبقى طي الكتمان..

(9)

ذاكرتها المتفسخة حدّ التعفن تمتلِئ أحيانًا، فتستعيد أسماء وصورا وأحيانا كثيرة تنسحب منها فتغدو كشريط فارغ، اجتمعت مخيلتها المضطربة تلك الليلة بأبيها، رأته يجلس أمامها بقمبازه الرصاصي المخطط وكوفيته البيضاء وقد علا وجهه النور، ابتسمت وقبلت مقدمة رأسه وسألته عن أمها وأعمامها وإخوانها وعن أخبار الدار والديوانية وكروم العنب والتين، فأخبرها بأنَّ أشباحهم دائمة الزيارة للدار..

وعندما سألته، كيف يزورونها وقد استوطنها الغرباء؟

أجابها بأنّ الأشباح لا تُرى لكنّها قد تُحس، فنحن لا زلنا نعقد السهرات كما السابق نفعل كل ما كنّا نفعله عدا الشراب والطعام فلا نقترب منهما، وقد تنجس وسط عويل البنادق واحتضار ذلك الليل الذي ولد نهارًا بلا ألوان.

صمت هنيهة ليتخلص من دمعة علقت في طرف عينه ثم أكمل: لا تخافي يا زينب فلن نترك الدار التي ما زالت تحنّ إلى رائحتنا التي احتفظت بها في ذاكرتها وسنقعد لهم بالمرصاد.

هم يحتلونها، نعم، يغتصبونها كلّ ليلة، نعم، لكنَّنا لن نتركهم وسندخل الرعب في قلوبهم كلّ لحظة، سنُسمعهم وقع خطانا العائدة، وصوت قرقعة مفاتيحنا، سيرهبهم صوت صرير الأبواب التي تنتظرنا.

وبعد تنهيدة طويلة أخذت من خلالها كمية من الأكسجين، قالت: هل تعلم بأني عند نهاية كلّ نهار أراقب الشفق البعيد فأرى به وجه قريتنا باكيا والدموع الزرقاء تسيل على وجنتيه، والجبين المصفر أسفل خصلة الشعر الأخيرة قد نبتت عليها هموم العمر، إنها عشر سنوات يا أبي، حتى جدائل الشمس لم تخبرني إذا كانت لا تزال تغفو على أكتاف أشجار الخروب في القرية، عشر سنوات والحزن معلق في قلوبنا، فمتى يرجع القمر للسماء ترافقنا أنواره بين أزقة الحارات ثم تعاكسنا لتكون شريكتنا في اللعبة.

آه من تلك العشر، كم أثقلت كواهلنا يا أبي فهل ستكبر تلك العشر أم أنَّ الوقت سيتوقف عندها؟؟

(10)

منتصف تشرين الأول (1921)

تمايلت أغصان الزيتون غنجًا عندما قام أبو سالم بالتقاط ثمرة اكتنزت الزيت بداخلها، ثم عصرها بين أصابعه وقال كلماته المعهودة التي يقولها كلّ عام في موسم قطاف الزيتون لزوجته:

(شوفي يا أم سالم هالحب زي الذهب)

ثم يدهن يديه بزيتها الذي اعتصره للتو مع ابتسامة عريضة ترتسم على وجهه، ويستطرد قائلاً:

(هالزيتونات ولادات مثل نسوان فلسطين)

فتومِئ أم سالم برأسها موافقة على ما يقول والعرق يتفصّد من جبينها ويتسرب من أسفل ملاءَتها البيضاء، فتمسحه بطرف كمّها وتواصل قطف الزيتون.

في الركن الآخر من الكرم يجلس الحاج أسعد ليأخذ استراحة فيحشو غليونه، في حين إبريق الشاي الذي كان قد وضعه منذ الصباح على جمر لأخشاب اجتهد في إشعالها، وعمل حولها سورًا عاليًا من الحجارة لئلا تطير شرارة منه فتتسبّب بحريق في الكرم، قد أصبح مخمرا وجاهزا للشرب، فينادي أولاده ليشاركوه الاستراحة وأَخْذ كوب من الشاي، ويبدأ الأب والأولاد يهزجون فرحا بهذا الموسم المبارك:

على دلعونة وعلى دلعونة

زيتون بلادي أجمل ما يكونا

زيتون بلادي واللوز الأخضر.....

فيتجمع الأطفال يصفقون ويرقصون، وفي هذا الجو المكتظ بالفرح والسعادة تصل أم خالد تحمل بين يديها طعام الغداء الذي أصبح طعمه أشهى مع التعب، فينطلق الأولاد للمساعدة، وتتحلق العائلة حول السفرة يتكلمون عن موسم هذا العام وكم سطلاً من الزيت سيكون الإنتاج؟ كما ويلقي الجد خطبته المعهودة في كل موسم عن أهمية الزيتون ليضعها الصغار (حلقة في آذانهم).

وتستمر الأهازيج إلى نهاية النهار وحتى تنتهي العائلة من القطاف.

(11)

العام (1922)

عام ضاعت فيه الألوان وسكن في طياته اللالون، فكيف يسرقون الفرح منهم ومن أعطاهم حقّ السرقة؟ وهل يُسرق حقّ شعب كامل بوعد؟

ضربة قاسية تلقاها أهل دير ياسين كما باقي الفلسطينيين، بعد أن وافق الكونغرس الأمريكي على وعد بلفور المشؤوم.

لكن الأمل ما زال يضجّ في جنبات دير ياسين فلا القرارات قادرة على إيقاف أعمالهم، ولا الوعود الساقطة تلغي حياتهم، وإن كانت قد التهمت جزءا من سعادتهم، إلا أنهم يثبتون للعالم دائما بأنهم قادرون على ممارسة السعادة ولو كانت منقوصة.

استيقظت عائلة أبي سالم باكرًا وقد قام أيوب مع رجال العائلة بتحميل شاحنته بثمار الليمون بعد تسفيطها في صناديق خشبية، وفي هذه الأثناء كانت زينب تتجهز للذهاب مع عمها فقد بيتت النية منذ الليلة الفائتة على ذلك بعد أن أدخلت جدها وسيطًا لمساعدتها.

قفزت زينب إلى الشاحنة، واستعجلت عمها خوفا من أن يبدل جدها رأيه، فاستجاب لها وأدار المحرك، فسارت المركبة ترافقها فرحة زينب التي لا توصف بالذهاب إلى القدس، فلم تكن تزورها سوى مع أهلها لصلاة العيدين في المسجد الأقصى، وبعد الانتهاء كانت العائلة تعود مباشرة إلى

البيت لاستقبال المهنئين بالعيد، بالتالي لم تكن هذه المدة القصيرة لترضي فضول زينب في التجول بين حوانيت القدس، ولا تتاح لها الفرصة لشراء ما تريد، أما اليوم فهو فرصة بالنسبة لها، فقد انفردت بالزيارة لوحدها من غير بقية الأطفال الذين كانوا سيقاسمونها الكعك المقدسي والحلوى.

سارت المركبة وزعيق عجلاتها الضخمة يستفز التراب الذي ما زال غافيًا على الطريق الترابية، مما أثار غيمة من الغبار علت المركبة وأطلقت خلفها العديد من الشتائم.

راقبت عمّها وهو يقود الشاحنة بكل حرفية، وقد كان قليلاً ما يتكلم، قليلاً ما يبتسم، لذلك اكتفت بالمراقبة وتجنّبت الحديث معه لئلا ينزعج منها ويغير رأيه فيعيدها إلى البيت.

قتلها صمت عمها لكنها رضيت (بالموجود) فقد كانت تريد زيارة القدس فقط والباقي غير مهم.

وأخيرا الشاحنة تقف أمام سوق القدس.

طلب منها عمّها أنْ تبقى في الشاحنة إلى أن يعود، وترجل من المركبة واتجه نحو إحدى الحوانيت، وهناك دار حوار بينه وبين أحدهم ويبدو بأنه التاجر الذي سيشتري ثمار الليمون، التزمت الهدوء وراقبت الناس وحركتهم المستمرة، وصوت الباعة الذي يملأ المكان. تسربت روائح الكعك والخبز المقدسي داخل أنفها، أدارت رأسها دورة كاملة رصدت من خلالها كل شيء ثم عادت إلى حيث عمها لا زال يساوم التاجر على الثمن، فقالت:

(اللهم جيبك يا طولة البال، خلصوني اتفقوا عاد)

وبعد طول انتظار ومراقبة تنفّست الصعداء عندما سحب الرجل محفظته من جيبه وناول عمّها رزمة من الليرات ثم صافحه ومضى.

قفل عمّها عائدا إلى الشاحنة والرضا بادٍ على وجهه.

(يبدو بأن الصفقة رابحة) قالت في نفسها.

فتح أيوب باب الشاحنة:

-تعالي يا عمّي انزلي خليني أفرجيكي سوق القدس.

مدّ يده في جيبه وأخرج منه قرشًا أعطاه لزينب، فقفزت عيناها والتصقت بالقرش.

- قرش مرة وحدة يا عمي!!

- بتستاهلي مش أنت الأولى على صفّك فالمدرسة.

أمسك أيوب ابنة أخيه من يدها ومضى بها لوقت ليس بالقليل فاشترى لها الكعك وبيض الحمام والملبس، سارا طويلا ثم دخلا مطعمًا وتناولا فيه وجبة الإفطار، حدثها عن القدس، وسألته الكثير، مضى وقت طويل لكنه بالنسبة لزينب كان قصيرا جدا، فإذا بالأذان يصدح في منابر الأقصى.

بعد أن انتهى أصحاب الحوانيت من إغلاق حوانيتهم توجهوا نحو المسجد للوضوء والصلاة، وتوجه أيوب وزينب نحو الشاحنة فأصعدها وطلب منها أن لا تفتح لأحد ريثما يعود.

انتبهت زينب بأن عمها لم يذهب للصلاة إنما اتخذ مسارا آخر، فظلت تراقبه حتى غاص داخل السوق ولم تعد تراه، غاب أيوب لكنّها لم تهتم فما كان يهمها تلك الجولة الجميلة والحلوى والقرش.

تأملت قبة الصخرة من بعيد وكان عمّها أكرم قد أخبرها بأن عبد الملك بن مروان هو الذي شيدها، أمّا المسجد الأقصى فبناه ابنه الوليد بن عبد الملك، فقالت في نفسها..

(عمي أكرم موسوعة ليتني أستطيع أن أصبح مثله).

وبينما كانت تدير حوارات كثيرة مع نفسها وتقضم حبات الملبس، وقع نظرها على المكان الذي اختفى به عمّها فإذا به مع فتاة شقراء تتمايل غنجًا ثم تعانقه عنوة عنه، ويبدو بأنه كان خائفًا أن يلمحه أحد، فتلفت حوله ونزع ذراعيها عنه واستدار عائدًا.

تقصدت زينب إسقاط حبات الملبس وانحنت للأسفل متظاهرة بأنها تقوم بجمعها.

فتح عمها باب الشاحنة وكان التوتر واضحًا عليه وعندما أراد تشغيل المحرك انطفأ، عندها نظر إلى زينب ووجه لها سؤالاً:

- شو كنت بتساوي يا عمي؟ تفرجتي على السوق والمسجد الأقصى؟

فردت زينب عليه بالإجابة التي تمنى أن يسمعها:

- وقعت مني حبات الملبس تحت الكرسي، ما شفتني وأنا بلم فيهن يا عمي؟

أخذ عمّها نفسًا طويلاً ومسح حبات العرق التي سربلت من جبهته وانزلقت خلال سالفيه العريضين.

زينب في ذلك اليوم لم تشعر عمّها بأنها رأته مع تلك الفتاة الشقراء حتى لا تُقابل بالرفض إن طلبت مرافقته مرة أخرى إلى القدس، بالرغم

من الغصة التي ظلت عالقة في حلقها مما رأت، فما علاقته بتلك الفتاة؟ هل هي حبيبته أم زوجته؟

وهل هذا هو سبب رفضه المتكرر للزواج كلما عرضه عليه جدها الحاج أسعد؟

امتص ذلك المشهد فرحة زينب، فكان هذا أول الأسرار التي ستخفيه زينب ليس فقط عن جدها وعائلتها، إنما عن ستخفيه أيضا عن نفسها.

(12)

كانت كثيرًا ما ترى قريتها ضمن شريط الصور الذي تعرضه لها الذاكرة عندما تقرر العودة أحيانا ولوقت قصير، تراها في غيمة تسبح في السماء، أو في شجرة حور، وتبكي بصمت عندما تراها في أوراق الأشجار التي تتقاذفها الرياح في الخريف.

جلست إحدى الصباحات تخاطبها:

من أين أبدأ يا حبيبتي؟ هل أبدأ من صوت بكائك حين يصلني مع الريح من جسدك القصبي المثقوب، أم من فيضان حنينك الذي يقتلني يا نايي الحزين، أم من صباحك الذي اغتالوه ذات نيسان وهو يشمر عن ساقيه ويسير فوق الأشلاء والدماء باكيًا على أهل لن يعودوا، وعلى أبواب ابتعدت مفاتيحها، وأزهار لوز أقسمت ألا تعود الربيع القادم، وأعراس زيتون قتلت وألقيت على أطراف العمر المفقود، من أين أبدأ؟؟

لن تنسى جدها ذات نهاية نهار وقد كانت الشمس تتهيأ للرحيل وهو جالس في فناء الدار يبحلق بتراب الأرض، لن تنسى إجابته عندما سألته:

- شو فيك يا سيدي؟

- بتزود من شوفة تراب الدار وحيطانها.

يتخلص من تلك الدمعة الحارة، ثم يواصل:

- ما بعرف ليش بحسّ إني رايح أفقد هالأرض وريحتها عن قريب.

لقد صدق إحساسك يا جدّي فكلنا فقدناها وجميعنا ابتعدنا رغما عنا، بل إنّنا فقدنا أنفسنا أيضًا عندما تكوم الغياب غصة في حلوقنا التي جفّت لطول الانتظار.

لكننا سنعود.....

(13)

نهاية نيسان (1923)

زينب تقفز من شاحنة عمها ذات نهاية يوم دراسي وقد التقى بها وهو عائد من القدس، فتسمع وهي تهم بالدخول إلى البيت ذلك الشيء الذي تعشق سماعه كما باقي أطفال القرية.

قرب قرب قرب

قرب شوف واتفرج قرب

وصل صندوق العجب.....

بعد أن ألقت حقيبتها المدرسية جانبًا أسرعت إلى جدّها، وقد نسيت تقبيل يده كعادتها أو حتى إلقاء التحية، فصندوق العجب قد أخذ عقلها.

– يا سيدي معك خمس فلوس، أمانة بسرعة يا سيدي صندوق العجب بالقرية وإسّا ما بظللي مكان للفرجة.

قالتها وهي تلهث وترقص من الفرحة بوصول ذلك الصندوق، فقهقه الحاج أسعد وبعد أن مدّ يده إلى جيبه وأخرج خمسة فلوس قال:

– خذي يا مصلحجية ما بتبوسي سيدك، بعتيني بفرجة!

اختطفت النقود من يد جدها دون أن تُعِر أي انتباه لما قاله ومضت.

عندما وصلت كان الحكواتي قد بدأ بإنزال حمولته وقام بنصب القاعدة التي سيوضع عليها الصندوق، كان مزركشا وجميلاً، طوله لا يتعدى

المترين أما عمقه فستون سنتيمترا، يحتوي ست فتحات دائرية قطر كل واحدة خمسة عشر سنتيمترا، وقد غُطي بزجاج مكبر بحيث يتاح للشخص رؤية ما بداخله.

اتخذت زينب مكانها على مقعد خشبي طويل من غير ظهر وكانت أول الواصلين، تجمع عدد لا بأس به من الأطفال منهم من جلس على المقعد وهذا الشرف لا يناله إلا من دفع خمسة فلوس، أمّا الواقفون فمنهم من أحضر بيضة سرقها دون أن تراه أمّه أو رغيفًا من الخبز.

تعالت أصوات الأطفال ليستحثوا الحكواتي للبدء بحكايته، وكانوا ينتظرون بأن يحكي لهم قصة أبو زيد الهلالي كما اعتادوا، أو قصة عنترة بن شداد، لكنه أخبرهم بأن الحكاية هذه المرة مختلفة، واستطرد قائلاً لهم بلهجة لا تخلو من الحدة:

(كل واحد بمسح برابيره قبل ما يحط بوزه على الفتحة)

فاستجاب من كانت برابيره قد نزلت وانزلقت على شفته العليا بمسحها بطرف كمه.

وهنا بدأ بسرد حكايته، وكان كلّ واحد منهم قد ألصق وجهه بفتحة من الفتحات الدائرية والتي غالبًا ما يحدث عندها مشاكل بين الأطفال، لكنه كان قادرًا على قمعها وبسرعة.

أخذ بلفّ البكرة والتي كان يثبت على كلّ طرف منها صور شخصيات الحكاية، ثم قال:

"كان يا مكان في سالف العصر والأوان، أربع أخوات جميلات، وكانت الأخت الصغرى أكثرهن جمالاً وذكاء."

تظهر صورهن على البكرة، فيبدا الأولاد بغمز بعضهم البعض فتحمر خدود البنات خجلاً، وتبدأ كلّ واحدة تهذب من شعرها المنكوش بوضع البصاق على كفيها ثم مسح شعرها به.

"كُنَّ يا أولاد يَسكُنَّ سفح أحد الجبال الخصبة، وكانت كلّ واحدة منهن تسكن كوخًا خاصًّا بها، ومع مرور الزمن امتلأ الكوخ بالخيرات، فكن يزرعن ويأكلن من محصولهن الوفير، ويتزودن بالماء العذب من بحيرة قريبة كُنَّ قد استملكنها فأصبحن غنيات جدا، حتى وصل صيتهن إلى مشارق الأرض ومغاربها، وأصبحن محط أنظار الطامعين، لكن هذا لم يثنهن عن العمل بجد لزيادة ثرواتهن.

عشن في رغد من الحياة حتى طرق باب كوخ الكبرى ذات صباح شخصان، كان أحدهما بعين واحدة والآخر بثياب مهلهلة وقذرة."

هنا يصرخ الأولاد بصوت واحد.

(يييييع قرف)

ينهرهم الحكواتي وبعد عناء منه يصمتون، ويكمل الحكاية:

"كان صاحب الثياب المهلهلة يشبه المشردين، وكان قد تسمر خلف الأول. ألقى ذو العين الواحدة تحية عليها أخفى خلفها خبثاً ومكراً، ومن هول منظرهما أرجعت جذعها للخلف بعد أن أظهرت توجّسًا اختلط بالتقزز، فبادرها ذو العين الواحدة بحديث رقيق كان مضمونه أن لا تخاف منهما لأنهما المخلصان لها ولأخواتها من غول يسكن في أعلى الجبل ويخطّط لطردهن من أرضهن، ثم الاستيلاء على أكواخهن وجميع خيراتهن."

فأطلق الأطفال لعنات كثيرة على الاثنين (ما تصديقهم يا هبلة بدهم يسرقوك أنت وأخواتك)

يسكتهم الحكواتي مهدّدًا إياهم بإنهاء الحكاية، فينجح ويهدأ الأطفال، ويكمل:

"دعت الأخت بعد أن أقنعها ذو العين الواحدة أخواتها الثلاث لاجتماع طارِئ، تكلم فيه ذو العين الواحدة وكان لبقًا، بينما بقي المشرد صامتًا واكتفى برمق الأربع بنظرات خبيثة، وقد شدّه ذكاء الصغرى بينهن، فقد رأى فيها من الفطنة ما لم يره بالأخريات، خصوصًا عندما أبدت اعتراضها على ادعائهما بشأن وجود ذلك الغول، وحذرت أخواتها اللواتي يبدو بأن الحيلة قد انطلت عليهن من أن يقعن في مكيدة خطيرة.

كانت نتائج الاجتماع بعد تشاور الأخوات الثلاث أن يقيم الاثنان في أرضهن في خيمة لهما لحماية أملاكهن من غول الجبل، وقمن باستبعاد رأي الصغرى.

حذرت الصغرى أخواتها كثيرا من هذين الرجلين لكن كلّ محاولاتها باءت بالفشل، خصوصاً بعد أن نجح ذو العين الواحدة بالزواج من الكبرى التي كانت تمتلك كلّ القرارات."

قام الحكواتي بلف البكرة فظهرت صور الأكواخ الأربعة الملونة بألوان فاقعة ليلفت نظر الأولاد، فيندمجوا في الحكاية بعد أن بدأوا بالتململ، ثم أكمل:

"عاش الرجلان مع الأخوات يسرقان ويعيثان فسادا في الخفاء إلى أن جاءت الليلة المشؤومة التي أقدم بها المتشرد على قتل الصغرى، وادعى

حينها بأنه رأى غول الجبل يتسلل إلى كوخها، وعندما حاول إنقاذها تلقى ضربة من الغول على رأسه فأغمي عليه.

ولولت الأخوات وبكين عدة أيام، ثم قررن منح المشرد المخلص كوخ أختهن الصغرى جزاء له على ما فعل من محاولة لإنقاذها من الغول."

وهنا احتج الأطفال على قباحة الحكاية وعمّت الفوضى المكان، ثم تناول كل واحد حجرا لرجم الصندوق أو إعادة ما قاموا بدفعه له، فاضطر الحكواتي أن يعيد ما دفعوه وانطلق كل واحد إلى بيته يشتمون ويلعنون الحكاية والحكواتي.

بينما زينب ظلت في مكانها، فنظر الحكواتي إليها بعد أن تخلص من بقية الأطفال وقال:

- وانت يا عمي ما بدك فلوسك؟

- لا يا عمي أنا بدي أكمل الحكاية للآخر.

فواصل الحكواتي سرد الحكاية قائلاً:

"بعد أن حصل المشرد على كوخ الأخت الصغرى بالحيلة والخديعة، وبمساعدة ذي العين الواحدة أصبح الآمر الناهي هناك.

لكن حلما غريبا كان يزور الأخوات باستمرار، فكن ثلاثتهن يرين أثناء النوم أختهن الصغرى تضغط بيدها على جرح مركزه قلبها، وتحذر أخواتها من الرجلين وكانت تشدّد التحذير من المشرّد..

حكت كلّ واحدة للأخريَيْن حلمها الذي كان يزورها، فخرجن بنتيجة واحدة وهي أن ما يرينه في المنام هو مجرد أضغاث أحلام.

ولما تكرر الحلم أمرت الكبرى بإحضار التمائم التي حصلن عليها ذات عام من ساحرة الغابة العجوز، آملات بهذه التمائم أن لا يعاودهن هذا الحلم الذي قضّ مضجعهن..

وفي صباح أحد الأيام استيقظت الكبرى فلم تجد زوجها، لأنّ مهمته كانت قد انتهت فترك لهن المشرد الذي قام بالاستيلاء على أجزاء كبيرة من أكواخهن وأملاكهن ، وبعد أن كن ملكات أصبحن عبدات يخدمن شخصاً لم تكن تربطه أية صلة بهذه الأرض.

(انتهت الحكاية يا عمي)

وهمَّ بحمل صندوقه عازما على المغادرة لولا أن زينب أصرت عليه أن يرافقها إلى بيت جدها، وهناك رحّب به الجد كثيرا وأحسن ضيافته وعوضه بخمسة قروش.

خرج الحكواتي من بيت الحاج أسعد شاكرا لهم، لاعنًا الحكاية، حالفًا بينه وبين نفسه أن لا يعيد سيرتها مرة أخرى.

(14)

هاجمها الأرق بكل ما يملك من مرافِئ ليقلق راحة سفنها المتعبة، وقد أمضت العمر زحفًا على الماء اللزج الثقيل، فكانت كسلحفاة جريحة تبحث عن راحة الموت على شواطِئ إحدى الجزر، إنّها مهيضة الجناح، فحتى هذا الأرق اللامرئي ينتصر عليها، فكم من المرات ستفشل وهي تهشّه عن أهدابها كذبابة غبية لا تملّ.

إنّها عاجزة عن منع نسمة الهواء من أن تتلاعب بشعرها المنكوش لولا أنها في غرفة مهترئة محكمة الإغلاق، هواؤها مشلول مثل إرادتها تماما، ولولا ذلك لكانت حتى الغرفة رفضتها، لأنَّ الأماكن تكره الفاشلين، وهي لو لم تكن فاشلة لاستطاعت التحرّر من عطب هذه الغرفة والأرق معًا.

(15)

استيقظت زينب باكرا جدا فقد سمح لها جدّها بأن ترافق عمّها أيوب هذا الصباح إلى القدس، دعت زينب طيلة الطريق إلى القدس بأن لا يتكرر ذلك الموقف مع الشقراء.

أنهى عمله وعاد سريعًا، قضت مع عمّها وقتًا ممتعًا ثم قفلا عائدين إلى القرية، وفي طريقهما عرج أيوب على أحد الأحياء اليهودية لشراء حاجات، غير متوفرة في حوانيت القدس، من إحدى حوانيت اليهود.

ولما سألت زينب عمها عما يرغب في شرائه، أجابها بأنه سيقوم بشراء تبغ جيد لغليون جدها.

قام بركن الشاحنة عند أول الحي وأكملا إلى الحانوت سيرًا على الأقدام لأنه لم يكن بعيدا.

- مرحبا يا يعقوب، كيف حالك؟

- أهلا خبيبي أيوب، تعال فوت أفرجيك البضاعة.

لم يكن شكل أيوب مريحا بالنسبة لزينب، لفتت نظرها هالات سوداء تحيط بعينيه مع وجود انتفاخات تشبه حبات المفتول، شيء في عينيه أصابها بالخوف والرعشة معًا.

جلست على كرسي صغير من القش أحضره عمها من داخل الحانوت ثم انسحب إلى الداخل ليرى البضاعة التي دعاه يعقوب لرؤيتها.

كان جسدها متحفزا وذهنها متيقظًا، فقد زارها خاطر قبيح بأن يعقوب قد يقتل عمّها ويختطفها ويودعها ذلك الحانوت الموحش الذي يسكنه أحد الغيلان، والذي من المؤكد سيخرج عندما يحلّ الليل!

بدأ الخوف يستحوذ عليها مما زاد من إفراز هرمون الأدرينالين في دمها، ومن تسارع ضربات قلبها، ودبت قشعريرة في جميع خلاياه، وكادت تبلل ملابسها لولا أن حدث موقف انتشلها من خوفها، عندما انفلت ولد نحيل تميزه وحمة بنية احتلت الجهة اليمنى من أنفه، من أحد البيوت واندفعت خلفه عجوز ارتدت تنورةً أقصر من أن تغطي تقوس ساقيها النحيفتين، وقميصًا بأكمام طويلة، وقد ربطت رأسها بمنديل صغير ملوّن للخلف، وكانت جديلتاها الفضيتان المجدولتان القصيرتان تتدليان من خلف أذنيها كغصنين هرمين.

ركض الولد، وجرت العجوز خلفه بمقشة كانت تمسكها بيدها، وأتبعته سبابًا وشتائمَ كثيرة، لم تتمكن من إدراكه، إذ كيف لعجوز بعمرها أن تدرك ولدا صغيرا لم يتعد السبع سنوات، وبعد أن أنهكها التعب جلست على طرف صخرة ووضعت المقشة بين فخذيها وارتكزت عليها، ثم نادت عليه وهي تلهث:

- تعال يا إسحاق لن أضربك.

- إنّك تكذبين، لطالما قلت لي تعال، ووعدتني بأنك لن تضربيني وحنثت بوعدك.

وإذ بامرأة تفتح باب بيت مجاور لبيت العجوز وتطل بقميص نوم قصير شفاف كشف عن جسدها الأسمرالمكتنز:

- ما بك يا إسحاعيل، ما بال جدتك عليك.

وقهقهت بصوت عال فاهتزت أثداؤُها الضخمة والتي كادت تنزلق من الفتحة الأمامية الواسعة للقميص، ثم دفعت الباب ودخلت بيتها بسرعة قبل أن تتلقى تلك الكلمات التي كانت ستقذفها العجوز في وجهها.

لكن العجوز لم تستبقِ الكلمات في جوفها، بل بخّتها خلفها كسم أفعى:

– أيتها العاهرة، يا ابنة الليل، أخبريني هيا أي كلب ينام عندك الآن، هل يكفي هذا أم أكمل؟

تمتمت العجوز بكلمات وصلت إلى أذني زينب: "الله يلعنك ويلعن أبوك النذل." تقصد حفيدها وأباه.

بكى الولد وقال لجدته: أنت دائما تشتمين أبي، أين هو لأخلصك منه، وتلك المرأة لِمَ تناديني بإسحاعيل، أو ليس اسمي إسحاق؟

بكت الجدة واحتضنت الولد ثم دخلا البيت وهدأت جلبتهما.

قبل ثماني سنوات، استأجرت العجوز اليهودية ذات الساقين المقوستين شابًّا عربيًّا من إحدى القرى القريبة، ليبني لها قنًّا لدجاجات وديكة كانت تنوي شراءَها لتبيعها لليهود في ما يسمونه بعيد الغفران، طلبا لربح بعض المال.

في ذلك اليوم الذي حضر فيه الشاب لبناء القن، وبينما كان منهمكًا في عمله، خرجت العجوز لشراء بعض الحاجيات من سوق القدس، وقد تركت ابنتها الوحيدة في البيت، وما أن غادرت الأم وتأكدت الفتاة من ذلك حتى ذهبت وتزينت ثم انطلقت نحو باب البيت وقامت بفتحه بهدوء، وقذفت بحجر صغير نحو الشاب الذي كان قد أعجبها لتلفت

نظره، وبالفعل التفت نحوها، فوقعت عيناه على أجمل امرأة يشاهدها في حياته، كانت شبه عارية، وكان جسدها شهيًّا تفوح منه رائحة الرغبة، فأشارت إليه بالدخول، لم يستطع المسكين أن يمسك نفسه أمام كلّ هذا الإغراء فما كان منه إلا أن استجاب لها، وانسحب خلفها، وكانت أنياب الشهوة قد انغرست في جسدها العاجي المشدود، فتبعها كمسحور وانغرس بكليته في جسدها وهي مستسلمة له صامتة، إلا من تأوهات تطلقها كلّما أحرقتها جمار النشوة. وعندما أطفأ سجائر شهوته الألف، قال وهو يهمّ بارتداء سرواله وهي لا تزال تترنح على سريرها: "إنها لا تشبع، وأنا لن يخزني ضميري فأنا لم أقدم على اغتصابها، بل إني سألعنها وألعن جمالها الذي استدعى كل غرائزي الذكورية نحوها."

تركها تستعر بنار شهوتها التي لا تطفأ، وسارع بالهروب ليس فقط من حيّ اليهود بل من المنطقة كلّها.

تركها بعد أن ترك نطفةً فيها، ولما اكتشفت الأم لعنت الشاب وابنتها والدجاج وعيد الغفران.

حاولت الفتاة أن تسقط حملها بإلقاء نفسها من درجات السلم لكن محاولاتها باءت بالفشل، وظل الجنين ملتصقا بجدار رحمها إلى أن كبر بطنها وافتضح أمرها في الحي، فأصبحت حادثة بناء القن كبعض التواريخ المهمة.

ولم ينتهِ الأمر لهذا الحدّ فقط بل إن اليهود أصبحوا يلقبون الولد بإسحاعيل.

خرج أيوب حاملاً حاجيات اشتراها من حانوت يعقوب، أمّا زينب فلم يغادرها المشهد الذي حصل أمامها، وظل اسم اسحاعيل يرن في

رأسها ومنظره لم يفارق خيالها، فارتسم ذلك النحيل صاحب الوحمة البنية التي اعتلت الجزء الأيمن من أنفه في ذاكرتها، فكانت كلّما تذكرت المشهد الذي حدث أمامها، تكوم الدم في رأسها كأنه زئبق انكمش بسبب البرد.

بعد تلك الحادثة صارت تتجنب الذهاب مع عمها لأنها لا تريد أن تصطدم بحقائق وتحتفظ بأسرار تؤرق حياتها، بالذات بعد أن خرج عمها وهو يحمل شيئا قام بلفه بكل حرص في كيس ورقي أخفاه تحت كرسي السائق.

(16)

هناك الكثير من القصاصات وجدت مخبأة أسفل فرشة زينب بعد خروجها من المصحّ، وكانت إحدى العاملات قد هربت لها قلما وأوراقًا، فالقوانين تمنع ذلك لئلا يقدم المريض على عملية انتحار.

تقول زينب في إحداها، ومن الواضح بأن الذاكرة كانت قد أسعفتها لتذكر بعض المواقف التي مرت بها.

عندما كنا نجلس أنا وأخواي جمال ومحمد على المنحدر قبالة الأفق الغربي، نراقب الغروب، كنا كثيرا ما نشعر بأننا قريبون جدا منه، فنحلم عندها بأننا نرحل خلف الشمس، نتبع أثرها، نودّ اكتشاف ما بعد رحيلها، وكثيرا ما تساءَلْنا: هل تنام الشمس بعد المغيب؟ فأتتنا الإجابة عندما سألنا جدي، وكانت دهشتنا كبيرة حين قال:

"الشمس يا سيدي لما بتغيب بتسجد تحت العرش لله لأنّ الشمس هي واحدة من مخلوقات الله، وربنا يا سيدي ما بحتاج لأي مخلوق حتى العرش خلقه حتى يظهر قدرته العظيمة، وهو جلّ شأنه مش بحاجة الو زي ما بيقول اليهود، وبعد هيك بتروح حتى تشرق في مكان ثانٍ من الأرض، فسبحان الله."

.....

القصاصة الثانية كتبت فيها وكان من الواضح أنها قد وصلت لمرحلة من اليأس الشديد، تقول:

شعرت ذات مرة بأنني أتجول بذاكرة عارية في أزقة حارات قريتنا، باحثة عن أي شيء يستر عورتها، فلم أجد ، فكل الأشياء هناك تحولت إلى رماد، فما أكاد أمسك به حتى يتسرب هاربا من بين أصابعي.

سرت في طريق لا أعلم أين سينتهي بي، فإذا ببئر كنت قد مررت بها من قبل، نظرت بداخلها علني أستطيع أن أروي ذاكرتي من مياهها فتزهر من جديد، فإذا بها تغصّ بجثث مشوهة لأطفال ونساء، تراجعت بسرعة للخلف وبدأت أركض بخطوات محمومة للأمام، وكنت ألتفتُ للخلف كلّما قطعت مسافة قصيرة لأتأكد من أنّ أيًّا منها لا يتبعني، فأتعثر وأسقط، ثم أنتصب بجسد متصلّب وأواصل الركض وعندما التفتُّ للمرة العاشرة، كانت الجثث تلاحقني، تقطَّعت أنفاسي وشُلّت حركتي تمامًا ولم أعد قادرة على التقدم للأمام، والجثث كانت قد اقتربت مني كثيرًا، حاولت الزحف ولم أستطع، يا إلهي إنها تقترب مني، بكيت بمرارة وأحسست بأن الموت يقترب مني يمزقني، يهوي بي في تيه لا خروج منه، تسارعت أنفاسي، اضطربت، غربان الموت أخذت تصفق بقوة فوق رأسي، صرخت وصرخت حتى تلقى جسدي تلك الحقنة المجنونة.

(17)

العام (1929)

ستة أعوام مضت، اغتصبتها أحداث مجنونة، فضّت عذريتها بنار شهوتها المستعرة.

نقل أحد شبان قرية دير ياسين، وكان يدرس في كلية القدس خبرا سيئا لأهالي القرية، مفاده أن اليهود تجرأوا على عمل أول تظاهرة سياسية نظمتها مجموعات من الصهاينة المتشددين عند حائط المبكى (حائط البراق) وهو الحائط الذي ربط عنده نبينا محمد صلى الله عليه وسلم دابة البراق ليلة الإسراء والمعراج، أي أنه يعني الكثير لدى المسلمين، لذلك تعمد الصهاينة عمل هذه التظاهرة وتحديدًا عند هذا المكان المقدس، نتجت عنها إضطرابات في عدة مدن من فلسطين، واشتباكات بين اليهود والفلسطينيين.

لكن هذا لم يفتر من عزيمة أبي سالم أو يجعله يلغي قراره بتزويج سالم من ابنة عمه نجوى، وكانت آنذاك العائلات الفلسطينية متمسكة بعادات لا تتنازل عنها مهما حصل، ومن ضمنها أن ابن العم يتزوج من ابنة عمه، حتى لو لم تكن تعجب الولد تطبيقا للمثل الدارج في ذلك الوقت (أوصيك بنت عمك، خذها ولو إنها عورة).

وعندما رأى أبو سالم تردّدًا لدى سالم حينما عرض عليه الزواج من ابنة عمه، صمت قليلاً وبدأ يدندن:

مكتـــوب عـــلى ورق التـــين اللي بفوت بنت عمه يـروح محـزون

عليـــك بـــالطريق ولـــو دارت وبنـــت العـــم ولـــو بـــارت...

فلم يكن أمام سالم خيارٌ آخر غير الموافقة على هذا الزواج الذي كان إجباريا، وفيه إجحاف في حق الولد والبنت معًا.

المهم أنَّ أبا سالم اتفق مع زوجته على مفاتحة أم خالد في موضوع ابنتهم مع العلم طبعا أنه لا مجال للرفض، لكنها العادات والتقاليد في الزواج، وكل هذا لا يتم إلا بعد موافقة الجد ومباركته للزواج.

بعد الحديث مع أم خالد وإعطاء الموافقة الفورية دون الرجوع لنجوى وفقا للمثل القائل:

(ابن العم بنزل بنت العم من ظهر الفرس)

اتفقت العائلتان على الخطبة، فصعد أيوب في اليوم التالي على سطح البيت الكبير، وقد تم اختياره لأن صوته كان عاليًا، فنادى في القرية: "يا سامعين الصوت، صلوا على محمد، بكره خطبة ابن أخوي سالم على كريمة بنت أخوي أبو خالد، والتجمع بعد صلاة الضحى في البيت الكبير."

تجمعت حمائل القرية في اليوم التالي وتمّت الخطبة حسب العادات والتقاليد والأصول، فزغردت النساء وعقد الشبان دبكة استمرت لأكثر من ساعة، أثناء هذا الاحتفال كانت الذبائح قد ذبحت على شرف هذه المناسبة، وتم عملُ غداءٍ مهيبٍ استجابة لطلب الحاج أسعد من أولاده حينما قال لهم: "بدي غدا ببيض الوجه، تحكي فيه الناس سنين يا ولاد".

وبعد يوم حمل معه الفرح للجميع، انفضّ الحاضرون كلّ إلى أشغاله، أتمَّت عائلة الحاج أسعد زواج سالم ونجوى خلال شهر واحد، ولم تمض

هذه السنة حتى كان أيوب قد تزوج مرغمًا زواجًا تقليديًّا أيضًا بعد إصرار من أبيه لأنه كان قد تجاوز الثلاثين من عمره، والأب يريد أن يرى أولاده قبل أن يموت، فاستجاب لأبيه ونفسه كارهه لهذا الزواج، فكان كلما نظر إلى زوجته، تذكر حبيبته الشقراء الجميلة التي انتحرت عندما علمت بخبر زواجه، فيسرع بالخروج إلى شاحنته يخرج قنينة العرق التي طالما خبأها عن الأعين تحت الكرسي، يفتح غطاءَها ويتجرعها وهو يقود الشاحنة، تمتزج دموع الحسرة على فقد حبيبته مع العرق الفائض على جانبي فمه، فيغيب تلك الليلة ولا يعود إلا عصر اليوم التالي.

مسكين يا عمي، كانت زينب تقول كلّما شاهدت عمّها وقد ساء مزاجه، فهي الوحيدة التي كانت تعلم بذلك الحبّ وتلك العلاقة.

(18)

فُتِح باب غرفتها ودخلها طبيب لم تره قبل هذا اليوم، وكانت قد تشكلت لديها عقدة من طبيبها الذي كان قاسيًا معها، فكانت جلافته معها سببًا مباشرًا في عدم شفائها، لذلك تصلبت في مكانها على سريرها عندما اقترب منها الطبيب الجديد، وشبكت ذراعيها حول ركبتيها وتكومت على نفسها، ولم تنبس ببنت شفة.

ألقى عليها التحية، لكنها لم تبادله الرد عليها، جلس على طرف سريرها وكانت هنالك إضبارة بين يديه أخذ بقراءة تقييم طبيبها السابق لحالتها المرضية:

"تعيش المريضة في أوهام من صنع خيالها، مضطربة ويزداد اضطرابها ليلاً، ثم..... نصف مجنونة."

هزت الكلمتان الأخيرتان وجدانه، فقال بصوت منخفض: هراء، أغبياء...

كلّ هذا وهي تحدق به منكمشة على نفسها في زاوية السرير.

التفت إليها وسألها (كيفك يا عائدة؟)

كيفك يا عائدة لملمتها هذه العبارة من متاهات الحزن والألم وقذفت بها إلى مقعد أمام ذلك الميناء الواسع البعيد، قذفت بها إلى عمق فصلها الذي تحبّ، تمثل أمامها يرتدي ذلك المعطف الأسود الذي كثيرا ما جاءَها يحمل لها الشتاء بين طياته، تذكرت لفافات تبغه وهو ينفث دخانها للأعلى، ثم

يحدق بها فيصهر ماء عينيها بوهج شمس عينيه، كم من المرات أزاحت بيدها شيئًا من فوق رأسه، وعندما كان يسألها، تجيبه وهي تبتسم بأنّها أزاحت نسمة هواء حاولت التحرش بشعره الفحمي وقد تخيلتها امرأة تعاكسه، فيقهقه ويقول: "إذن إنها غيرة الأنثى من أنثى أكثر جمالاً منها." وعندما يراها وقد قطبت حاجبيها من تهكمه عليها، يجذب يدها ويطبع قبلة على راحتها، يبقى عبقها كهواء لها تتنفسه كلما شعرت بالاختناق.

انتبه لها الطبيب ولاحظ بأنها غاصت في عالم خاص بها، فكرر سؤاله لها:

كيفك يا عائدة؟

أدارت رأسها من اليمين إلى الشمال ولم ترد على سؤاله.

طلب منها أن تتمدّد لأنه يريد أن يجري لها فحصًا ليطمئن على صحتها، فاستجابت له ولم تبد أية مقاومة كما في السابق، فقد تولد شيء من الارتياح نحوه بالذات عندما خاطبها بالعربية، العربية تلك اللغة التي لم تسمعها منذ عشر سنوات، بالإضافة إلى وجود شيء شدها نحوه لم تستطع أن تفسره، أهي إنسانيته أم عروبته أم عساه ماذا يكون؟؟

– ليش ما بتوكلي يا عائدة جسمك هزيل، قالولي إنك بترفضي وجبة الطعام أغلب الأحيان، مش بدك اطيبي، لازم تنتبهي لأكلك مشان ترجعي أحسن من الأول.

هنا اضطربت زينب وتكلمت أخيرا وخرجت عن صمتها:

– ليش أرجع أحسن من الأول، ولمين؟

وصارت تصرخ وتتلوى على سريرها كأفعى قطع رأسها.

اقترب منها، ظنت بأنه سيباغتها بتلك الحقنة اللعينة التي تدخلها عالم الموت الأصغر لمدة طويلة، لكنها تفاجأت عندما حاول تهدئتها من دون اللجوء إلى أية حقنة، بل إنه أمسك يدها وربت على ظهرها بحنان.

تنفست الصعداء، ثم بادرها الطبيب مادًّا يده نحوها:

- أنا ناجي طبيبك الجديد.

مدت يدها وصافحته، فشعرت حينها بدفء غريب لم تعهده منذ أن صنفها البعض بأنها مجنونة.

- جهزي حالك يا عائدة الزيارة القادمة بدنا نتمشى بالحديقة، شو رأيك يا صديقتي؟

ابتسمت ثم قالت:

- من زمان وهما بتعاملوا معي كأني حيوانة بس اليوم الموضوع اختلف.

- كل شي رح يختلف من هذا اليوم يا عائدة.

ابتسم وغادر الغرفة، لكنه تركها مع دهشتها، وأمل يتهيأ للاستيقاظ بعد أن كان يغط في نوم عميق، غادر وترك لها ألوانًا بدلت وحشة رمادية التصقت بعينيها لأكثر من عشر سنوات.

(19)

العام (1930)

اجتمع رجال القرية من كافة الحمائل بعد صلاة الجمعة في ديوانية أبو محمود، وهو أحد سكان دير ياسين، لتقديم التبريكات بحصول ابنه محمود على دبلوم اللغة العربية من كلية القدس، وكان بيته يعتلي الجهة الغربية من القرية ويشرف عليها بالكامل.

الحاج أسعد وأولاده كانوا من ضمن من حضر، بوجود أكرم الذي كان يثري أية جلسة يتواجد بها، فقد كان مصدر الأخبار والمستجدات على الساحة الفلسطينية بالذات، ذلك أنّ الأحداث كانت متسارعة لصالح اليهود منذ وعد بلفور المشؤوم.

بعد حديث ونقاش حول محاصيل هذا العام وشؤون القرية، وجه المختار سؤالاً اعتاد أكرم على سماعه من الجميع، كان السؤال حول آخر الأوضاع.

ذكّرهم أكرم بتظاهرة البراق التي نشأ بسببها اشتباكات وقتلى من الطرفين، اليهود والفلسطينيين، فأكد الحاضرون بأنّ تلك حادثة لن تنسى.

وتابع أكرم حديثه بأن هنالك خبرين، فشنف الحاضرون آذانهم جيدًا وصوبوا أنظارهم نحوه ينتظرون الأخبار، بينما غليون الحاج أسعد ينفث الدخان فيتصاعد للأعلى كثعابين تتصارع في حكاية من الحكايات الأسطورية، ثم لا تلبث أنْ تختفي ليكمل غيرها المشهد التالي.

كان الخبر الأول بخصوص بريطانيا التي قامت بتشكيل لجنة تحقيق، ثم أصدرت تقريرًا عن حادثة البراق وخرجت بنتيجة واحدة، وهي أن العرب لا يرون في الهجرة اليهودية فقط تهديدًا لحياتهم، بل يعتبرونها تمهيدا لإنشاء وطن يهودي يكونون هم الأسياد فيه.

أمّا الخبر الثاني فكان يخصّ وفدًا فلسطينيّا غادر إلى لندن لكي يعلن من بريطانيا رفضه للهجرة اليهودية إلى فلسطين والاستيلاء على أراضيها قسرا، وعقب أكرم قائلاً: "إن شاء الله يخرج بنتيجة."

ثم استطرد أكرم:

- أما الخبر الأخير فهو خبر سيِّئ يا جماعة وما بيطمن أبدا.

فقال أبو سالم:

- الله يستر، شو ظلّ أسوأ من هيك.

- بريطانيا الخبيثة اعترفت بالوكالة اليهودية اللي تم توسعتها سنة 1923م إذا بتذكروا، لحتى يضموا يهود صهاينة وغيرهم من زعماء اليهود البارزين من غير الصهاينة.

فحوقل الجميع وسط انزعاج واضح وغمامة يأس غطت سماء الديوانية.

انفض المجلس وخرج الجميع وكل واحد يحمل من الجروح ما يحمل.

بينما في بيت الحاج أسعد وتحديدًا في غرفة سالم، تجمعت نسوة العائلة مع (الداية) عند نجوى التي زارتها آلام المخاض أبكر من المتوقع، فهي لم تكمل شهرها التاسع بعد.

جلست الداية أمام رجليها المفتوحتين، لتشجعها على الدفع كلّما جاءَها الوجع، وهنا أسرت لأم سالم بأن ولادتها ستكون صعبة! ويبدو بأنها متعسرة أيضًا.

أمّ خالد تجلس القرفصاء عند رأس ابنتها، تفرك يديها تارة وتارة أخرى تمسح العرق عن جبين نجوى وعنقها، وتدعو الله بأن يهون الولادة، وأم سالم تهدِّئ الأم وتطمئنها.

زينب تقوم بتسخين الماء وتناوله لأمها من الباب من غير أن يسمح لها بالدخول لأنها لا زالت صغيرة، وممنوع أن تشاهد زوجة أخيها في مثل هذا الوضع.

برد هذه الليلة كان كانونيا قاسيا جدا، اختلط به صفير الرياح في الخارج بصراخ نجوى الذي كان يزداد مع كل (طلقة) تباغتها وسط تشجيع الداية لها على الدفع للأسفل قائلة: "ماظل إلا بطلع الراس، شدي يا بنتي".

تغضب أم خالد التي انهارت أعصابها خوفًا على ابنتها فتصرخ بالداية: "مالك يا مرة ختيرتي على هالمهنة، ليش ما قلتي إنك ما بتشوفي كنا شفنا غيرك".

ثم تبدأ بالولولة: "بدها تروح البنت من بين إيدي".

أم سالم تحاول تهدئتها، فتلقي أم خالد كلمات قاسية في وجهها: "أكيد يختي اللي بعد العصي مش زي اللي بوكلها".

تصمت أم سالم متفهمة خوف سلفتها على ابنتها.

وما بين ألم وخوف ووهن جسد، تتغلب عاطفة الأمومة، فتقدم نجوى على الدفع للأسفل بكل ما تبقى لديها من عزم، هدفها إنقاذ وليدها من الاختناق بماء الرأس الذي بدأ بالنزول، فيندفع الراس للخارج يتلوه الجسد الصغير بمساعدة الداية، وتدوي صرخة الولادة أرجاء الغرفة، وترتخي فخذا نجوى المنهكتين.

فيعلو صوت الداية: "ولد، جابت ولد، الحمد لله على سلامتها".

تلفه سريعا بحرام صوفي وتناوله لجدته أم سالم، فتطلب نجوى من حماتها تقريب المولود قبل أن يقمن بغسل جسده من آثار الولادة، تستجيب لها أم سالم وتقرب الصغير الذي بدأ نبضه يضعف كما نبض أمه الواهن، فتقبل وليدها وتمرر أصابعها على رأسه وتشمه بعمق ثم تبتسم ابتسامة عريضة، وقتها يكون الموت قد حلق فوق رأسيهما فيستل الحياة منهما، ويرتخي الجسدان معا.

تصرخ أم خالد ويعلو صراخها ونحيبها على ابنتها، أمّا أم سالم فقد بكت لكن بصمت وقامت بوضع المولود في حضن أمه وقالت: "نام يا بنيي هون، ما فيه أدفا من حضن الأم."

يدخل سالم فناء البيت وسط صراخ حماته الذي وصل إلى خارج الغرفة، فيندفع بسرعة نحو باب غرفته ويدفعه بقوة فإذا بالجسدان يتمدّدان كحمامتين ضاع السلام في سكونهما، تقوده خطواته ببطء نحوهما والدموع تنحدر بغزارة على خديه، يهزها، يحدثها بصمت، فالكلمات انتحرت في أماكنها، يقبلهما ثم يتراجع للخلف ويسند ظهره على جدار الغرفة ويصمت ويكتفي بالمراقبة وبكاء أخرس.

أم خالد تفقد وعيها مع دخول زوجها والحاج أسعد، فتنشغل النساء بإيقاظها، أمّا أبو خالد فينهار على ركبتيه باكيا على إحدى عينيه التي انطفأت للتو، فكل بنت من ابنتيه كانت كإحدى عينيه.

يتقدم الحاج أسعد من ابنه: "قوم يابه العياط مش للزلم، الله أعطى، الله أخذ، البقية بحياتك" ويواصل: "قوموا يا نسوان والله إنكم بتكسروا دول."

فيعم الهدوء داخل الغرفة أمام هيبة وكلمات الحاج أسعد، فمن عنده كبير في العائلة كالحاج أسعد لن تضيمه الحياة.

صباح اليوم التالي قامت النساء بغسل نجوى وابنها وتكفينهما وتعطيرهما، وبعد الصلاة عليهما في مسجد القرية توجّه رجال عائلة الحاج أسعد ورجال بقية الحمائل للمشاركة في واجب الدفن والعزاء.

سالم يهيل التراب على جسد زوجته وابنه اللذين دفنا بنفس القبر ويبكيهما بصمت، فيقف عمه أبو خالد وينطق لسالم باختها جميلة زوجة له عوضًا عن نجوى.

(20)

بكت كثيرا عندما تمثل لها جدها في شجرة الحور الصامدة التي بقيت وحيدة هناك في أقصى حديقة المصحّ برغم قسوة الفصول إلا أنّها لا زالت تقاوم حرّ الصيف وبرودة الشتاء، إنها عنيدة جدا، فحتى الخريف لم يستطع إخضاعها لقوانين السقوط التي يمارسها عادة على الكثير من الأشجار، ولم يتجرأ مرة عليها ليمرض أوراقها الخضراء، أو أجبرها لتتلون بلون الموت لتلقي بها على أرصفة العابرين يدوسونها فتتهشّم أسفل أقدامهم.

خاطبت صورة جدها، خاطبت بها قريتها وكلّ شبر من فلسطين بكلمات حزينة، متمردة، فقالت:

ها قد تركنا ماضينا يا جدي ليغفو أو يموت، لا أعلم فالأمر سيان، قد نكون تركناه هناك على بقايا بياض ذلك الفجر، أو ربما في لون آخر شفق لنا كان ذلك اليوم، وربما على حواف وسط نهار وادع جلس على أطراف الوقت المغتصب، على أشواك صباراتك يا جدي، وعلى زيتونات كرمنا العتيق.

على أثداء قريتنا التي رضعنا منها حليب الألم، هناك ستجدنا نبحلق في حوائط اللاذنب في فوضى الحروب.

نحن من سار على أشواك أوجاعنا يا وطني، فحملنا جثثنا بعيدا عن عيونك خوفا عليك من العمى، ابتعدنا فتركنا حنيننا الصغير في قلبك

الكبير ليؤنس غربتك، وأخذنا حنينك الكبير معنا ليؤنسنا، والآن دعني أخبرك شيئا يا وطني.

إنّ هذا العصر ليس بعصرنا، وما تبقى من أنفاسنا فقد استنشقته آخر أزهار للوز، وسيعاد إنتاجها في البلاستيدات الخضراء لأوراق الزيتون، خذها يا وطني، هي لك، لك وحدك أما نحن فمنسيون هناك خلف الأسلاك الشائكة في زوايا المنفى الضيق.

جلست وسط غرفتها تبكي قهرها وغربة الأهل والوطن والذاكرة، فحتى الذاكرة قد تخون صاحبها.

(21)

العام (1936)

أيها الزمن الذي يتّكِئ هناك هنيهة وهنا أخرى، اسقني كؤوسًا من نسيان...

آه من خمسة مضت غصّت فيها جنباتك يا وطني بالخيبات، فكم من هجرة للغرباء كانت، وكم من المرات اقتصوا من ثوبك ودنّسوا وكم عاثوا فيك من فساد، نعم إنّهم القوم الذين يعيثون خرابًا أينما حلّت رحالهم. فلِمَ كنت أنت الخيار يا وطني؟؟

"خمسة أعوام مضت كانت ككأس امتلأت بالأحداث، وفاضت كما فاضت قلوب الفلسطينيين بالأوجاع بسبب الهجرات اليهودية المتتالية وخسارة الأراضي، فقامت اللجنة التنفيذية العربية بالكثير من الإضرابات احتجاجًا على السياسة البريطانية الممالئة للصهيونية، وعندما تأسس الحزب العربي الفلسطيني للدفاع عن حقوق الفلسطينيين، تأسست مقابله المنظمة الصهيونية الإرهابية التي عرفت بالإرغون بزعامة جابوتنسكي، وخلال هذه الخمس أيضًا هربت كميات كبيرة من الأسلحة عن طريق منظمات صهيونية خارجية إلى اليهود عبر ميناء يافا.

والحدث الذي قطع القلوب، كان استشهاد الشيخ عز الدين القسام الذي استشهد وهو يقود أول عملية للمقاومة الفلسطينية المسلحة..."

هكذا افتتحت زينب درسها الارتجالي، والذي لم تحوِه دفتا كتاب إنما اتكأ على كتف القلوب المخلصة للوطن، بعد ان ألقت التحية على طلابها ثم كتبت البسملة على السبورة، وأسفل منها كتبت عبارة: (الثورة الفلسطينية الكبرى).

ثم وقفت أمام طلابها وبدأت بتعريف لهذه الثورة ومتى ولدت، فقالت:

"لقد ولدت ثورتنا المجيدة في شهر أيار من هذا العام، وتعرفون بأنها تفرعت إلى جميع المدن والقرى، فتشكلت لجان قومية أصبحت فيما بعد القاعدة التنظيمية للثورة." وهنا بدأ مطر صيفي يتطفل على زجاج النافذة كأنما يعاكسها يذكرها بلقاء ما، تركت درسها وبحلقت في قطرات المطر التي أخذت بالانزلاق على الزجاج من الخارج، فتمثل لها وقد جاء يحمل الشتاء على معطفه الأسود ببرده، بزعيق رياحه، بلون غماماته، بوحل الأزقة، بقطراته الباردة الدافئة التي أيقظت شهوة الحنين والرغبة إليه، ماذا تفعل؟ هل تخبئه مع أشيائها الصغيرة في أقصى زاوية من خزانتها، تلك الزوايا الغائرة والتي يخبِّئ بها العاشقون عادة رسائلهم وصور لقاءاتهم الأولى بعيدا عن عيون المتطفلين، لكنها إن فعلت فستغوص يقينًا في صقيع الغياب، وإن لم تفعل فستبقى تتحسَّس معطفه فتجد قلبه لا زال ينبض بداخله، تتحسّس وجهها فتجد أصابعه هناك، لكنّها عندما تنظر في عينيه تسقط في بئر الحقيقة المرة.

فتقول بصوت مسموع وهي لا تزال تحدق في زجاج النافذة: "إنّه لن يعود."

يندهش طلابها ويتهامسون فيما بينهم، هل جنت...؟

نعم لقد جننت، تقول في نفسها، وتكمل بعد تقديم اعتذار لطلابها:

"وتحت ضغط على الحاج أمين من شعبنا الواعي قام بعقد مؤتمر طالب فيه بالعصيان المدني وتنظيم إضراب عام، للاحتجاج على السياسة البريطانية التي تصبّ دائما في مصلحة عدونا الصهيوني."

دقّ جرس انتهاء الدرس وسط الحرج الذي وقعت به أمام طلابها، ووسط تعثرها في ترتيب عباراتها، ولملمت أغراضها بارتباك واضح وخرجت مسرعة من المدرسة كي لا تفوت فرصة اللقاء.

.....

.

كان أكرم من ضمن صفوف المقاومين الذين أرعبوا العدو في يافا بالذات مع تلك المعلومات الخطيرة التي كانت تتسرّب إليه من زوجته اليافاوية عن طريق أمّها اليهودية.. فكم من المرات قام المقاومون بتدمير كميات كبيرة من الأسلحة التي تدخل عبر ميناء يافا.

كان زواجه هذا أخطر سرّ أخفاه أكرم عن عائلته، فلو علم الحاج أسعد بأن أمّ كنته لأغلى أولاده يهودية لأصابته سكتة قلبية، وكيف لو علم أيضا بأن أكرم له منها ولدان، أكبرهما سماه أسعد على اسم أبيه، لكن من كان سيقنع الحاج أسعد بأن زوجة ابنه هي الأخرى مناضلة إلى جانب زوجها.

لكن كيف استطاع أن يخبِّئ هذا السرّ عنها، وقد اصطحبها معه عدة مرات وهي لا تزال طالبة في المرحلة الثانوية لزيارة يافا التي طالما كانت تتوق لزيارتها وهي صغيرة، كيف استطاع ذلك؟

"كان الإضراب قد استمر لمدة ستة أشهر، خلالها قامت قوات الأمن والجيش البريطاني بتدمير أجزاء من البلدة القديمة في يافا كإجراء عقابي للمقاومة الفلسطينية، وبالنتيجة لو أنّ رؤساء بعض الدول العربية لم يتدخلوا في إيقاف الإضراب لكان اليهود استسلموا وخرجوا من فلسطين صاغرين، هذا الطور الأول من الثورة وقد استمر من شهر أيار 1936م وحتى تموز 1937م."

(22)

النصف الأول من ذاكرتي صدئ، صدئ جدا يا دكتور، لقد صدئت عندما تسربت إليها تلك الرطوبة العفنة، عندما عشقت أكسجين الخيانة.

معادلة صعبة، أليس كذلك؟

أمّا النصف الثاني فقد مات، أتدري بأنه مات وأقمت عليه الحداد منذ عقد؟ لكني لا أتذكر أين دفنته، فقد أكون دفنته أسفل قمباز جدي، أو ربما أسفل رصاصة خانت أخي، أو أسفل أغنياتي لمريم، أنا لم أتعلم كيمياء الكتب، أما كيمياء الحياة فقد علمني إياها جدي وأبي وعمي وأرضي وأتقنتها أكثر من إتقاني للتاريخ الذي تعلمته من الكتب.

هل تستطيع ترميم النصف الصدِئ يا دكتور؟

وهل تُغسَل الذاكرة بعد الموت كالأجساد، هل تُكفن، هل تُعطر بعطر الموتى؟

وهل تشعر بالغربة حينما تُدفن وتبتعد عن أصحابها؟

بكى ناجي، بكى كثيرا وهو يستمع إليها ويتأمل تلك الندب التي عكرت صفو جمال خدّها الأيسر، ناجي الذي طالما شعر بشيء غريب يشدّه نحو هذه المريضة.

قبل هذا الوقت لم ينجح أحد من الأطباء في ترويضها أو يهتم أي منهم بأمرها، لكنها الآن أصبحت كالحمل الوديع، فقد أصبحت أقل اضطرابًا وأهدأ نفسًا بعد أن احتواها ناجي.

ما الذي كانت تراه في ناجي حتى تستسلم وتهدأ وتُسرّ بما تجود به عليها أنصاف الذاكرة عندما تتنشّط؟ هل هي نبرة الصوت التي طالما سمعت واحدة مشابهة لها؟ أم تراه العسلي في عينيه والذي كانت تعشقه في عيني أحدهم؟ من يحلّ لها هذا اللغز بل من يحلّه لناجي أيضا الذي ارتبط روحيا بها منذ أول لقاء له بها.

زيارة بعد زيارة كان ناجي يتسرب عبر مسامات جلدها، ويسير مع دمائها فيصل إلى قلبها، ويعالج ذلك الثقب الكبير الذي حفر فيه لوقت طويل.

(23)

العام (1937)

"مشاعري الكفيفة تتجول في أزقة ذاكرتي المعطوبة تمارس هواية القفز على أسيجة العمر المهترئة، فتسقط في دوامات الزمن المرتعشة."

جلست زينب إلى جانب جدّها على مقعده تحت زيتونة البيت، وقد أشعل غليونه وبدأ بنفث التبغ فتتشكل دوائر يتصاعد دخانها للأعلى، وكانت كلّما اعتلت الهواء تلاشت كما سعادة أهل فلسطين تمامًا.

تأمل الوادي الذي زُرع منذ عشرات السنين بأشجار التين واللوز وكروم العنب، وكان يفصل القرية عن المستعمرات التي ازداد عددها مع الأيام، ستّ مستعمرات لا تفصلها عن دير ياسين سوى القليل من الكيلومترات، وكانت تواجه المنحدرات الشرقية لذلك التل الذي تقع عليه القرية والذي لا يبلغ أكثر من ثمانمئة من الأمتار، كانت المستعمرة الأقرب هي (غفعت شاؤول) والتي لم تكن تبعد عن القرية سوى (1200م) تقريبا.

بكت زينب: "لقد سرقوا أرضنا يا جدي."

فطلب منها جدها أن لا تبكي لأنهم سيخرجون يوما من فلسطين أذلة صاغرين، تكلم الحاج أسعد كلاما بثّ من خلاله الطمأنينة في قلب حفيدته.

حدثها جدها عن إفسادين لليهود أخبر بهما القرآن الكريم، تبدأ قصة الأول عندما قامت مملكة الروم واليونان بطردهم من بلاد الشام، فالتجأوا إلى يثرب وبما أنهم اشتهروا بالمراباة بالمال فقد دخلوها وهم أغنياء، فأعجب بهم عرب الجاهلية، وعندما بُعث نبينا الكريم حاربوه وكانوا أشد الناس عداوة له، فتوجه من بقي منهم إلى أوروبا بعد أن قتل أكثرهم في عهد الخليفتين ابي بكر وعمر رضي الله عنهما وبما أنهم كانوا يعيثون فسادا أينما حلوا فقد نبذوا من المجتمعات التي عاشوا بها.

وأخبرها جدها بأن الإفساد الثاني هو على أرض فلسطين، وهي مشيئة الله بأن يجمع اليهود فيها حتى آخر يهودي على سطح الأرض استعدادًا للمعركة الأخيرة.

استبشرت زينب وتهلّل وجهها عندما أخبرها جدّها بأن أكثرهم سُيقتل والبقية سيخرجون أذلة يجرون خلفهم أذيال الخزي.

وهنا سأل الحاج أسعد زينب عن أخبار الثورة.

فأخبرته بأنها قد دخلت طورها الثاني في شهر تموز، والسبب هو نشر تقرير بيل الذي كان قد أوصى بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى فلسطينية يتمّ دمجها مع شرق الأردن مع الاحتفاظ ببعض المناطق لتكون خاضعة للدولة المنتدبة.

وعندما استفسر عن ردة فعل المقاومة، أخبرته بأنها تصاعدت من جديد فما كان من بريطانيا الخبيثة رأس الأفعى إلا أنْ أمرت بحلّ اللجنة العربية العليا، واعتقلت أعضاءَها وأعدمت الكثيرين بعد أن ألصقت بهم تهمة حيازة الأسلحة.

"فيه رب يا سيدي"

"تعرف يا سيدي بريطانيا هي الأم اللي أرضعت اليهود، منهم لله، بتحظر علينا حيازة السلاح وبتدعم اليهود بكل مساعدة تيسرقوا أراضينا".

وكانت بريطانيا قد عززت قوة اليهود العسكرية من خلال تعاونها مع الهاغاناه لتدريب اليهود على السلاح، كما واستخدمت منظمة إيرغون للقيام بأعمال إرهابية بزرع الألغام في الأماكن العامة والمزدحمة.

(24)

العام (1939)

عام مضغت أحداثه معظم سعادتهم ثم بصقتها في بحيرة الموت، فكانت وجبة سائغة للضفادع الزرقاء..

.....

وصلت الثورة نهاية هذا العام طريقًا مسدودًا بعد أن خاض الثوار من داخل فلسطين وخارجها معارك وبطولات قدموا فيها أرواحهم فداء لفلسطين، فارتقت إلى السماء ليكون مكانها عليين.

كان عبد القادر الحسيني من أولئك الثوار الذين شاركوا في الثورة المجيدة، بل إنه قاد معركة دارت رحاها مع الجيش البريطاني في جبال بني نعيم في القدس وكان قد أصيب فيها، فاضطر بعد نهاية الثورة إلى اللجوء إلى العراق ثم إلى ألمانيا.

.....

أبو سالم يجتمع بأبيه الحاج أسعد عشية ليلة من ليالي الربيع الدافئة بعد أن أغلق باب الديوانية شاكيًا له رفض زينب المتكرر للعرسان، وكانت قد تخطت السادسة والعشرين من عمرها.

أبو سالم ليلتها أسرّ لأبيه بأن هناك عريسًا قد تقدم لخطبتها، وهو الابن البكر لجارهم أبي محمود الذي تخرج قبل سنوات من كلية القدس بتخصص اللغة العربية.

– والشاب يابه متعلم ومتربي وما بيعيبه إشي، وإنت الوحيد اللي بيمون على زينب، فشو رأيك؟

– طيب يابه اتركلي هالموضوع.

قالها الجد بحنق وذلك لتعلقه الشديد بحفيدته، ولم يكن ليفكر بأن تتركه ذات يوم ويسرقها أحدهم منه.

فجر اليوم التالي وبعد أنْ عاد الحاج أسعد من صلاة الفجر كانت زينب قد استيقظت كما العادة وجهزت إبريق الشاي لجدها، فقد تعودت كل فجر أن تبدأ صباحها به، وتتجاذب معه أطراف الحديث قبل ذهابها إلى المدرسة، لكن يبدو اليوم بأن الكلام سيكون مختلفًا.

أخرج الحاج أسعد غليونه، الصديق الملازم له، والذي لا يفارقه إلا وقت النوم حينما يقوم بتنظيفه من بقايا التبغ، ثم يمدّده عند رأسه، وبعد أن جهزه قام بإشعاله وأخذ نفَسًا عميقًا، ثم اندفع الدخان من بين شفتيه إلى الخارج بقوة، فكان أشبه بذلك الدخان الذي يخرج من مؤخرة شاحنة أيوب عندما يدير محركها وهو غاضب، فأحست بأن هنالك ما يقلق جدها ويوتره:

– مالك يا سيدي، مين مذايقك؟

– إنت بتعرفي يا سيدي غلاوتك عندي، وبتعرفي إني عمري ما أجبرتك ولا سمحت لحدا حتى أبوك بإنو يجبرك على إشي إنت ما بدك إياه.

– أيوه بعرف، بس احكيلي مالك، وأنا رايحة أكون رهن إشارتك.

– ابن جارنا أبو محمود شب متعلم ومتربي ورايدك على سنة الله ورسوله، شو رأيك يا سيدي؟

صمت اعترى المكان...

وماذا أفعل بقلبي الذي لا زال يترنح هناك، على ذلك المقعد المقابل للميناء، هل أستطيع أن أنساه وأنسى ذلك المرفأ الذي شهد نظراتنا الأولى، حبنا الأول، شغفنا الأول، هل أنسى وعده الذي قطعه لي بأنه لن يكون إلا لي، كيف سأنسى تلك القطرات التي انزلقت من السماء على وجهي فتلقاها بأصابعه وتذوقها، فاكتشف طعم جلدي من خلالها وقال لي وقتها ومن غير كلمات أنك امرأة خرجت من أسطورة، بل إنك ملكة أساطير الجمال، كيف سأنسى وهج أنفاسه ذلك اليوم البارد عندما لفحتني فأهدتني ذلك الدفء اللذيذ الذي سرى في دمائي، كيف أنساه وقد تفتحت أزهار الحبّ في قلبي على يديه.

كيف أنسى من حاك بنظراته خيوط الحبّ حول قلبي، كيف امتلك تلك القدرة وأنا تلك التي عجز الكثيرون عن امتلاك قلبي، كيف خانني قلبي عندما سقط في مملكة قلبه.

هل أحببته فعلاً، أم تراني أحببت ذلك الميناء وتلك المراكب، وتلك المدينة الواسعة التي تتزين بكل مساحيق التجميل لتفتن كلّ من ينظر إليها.

كيف أوافق وأنا لا أزال تائهة في دهاليز مملكته، فهل أرتدي قناعًا...

كيف سأنظر في عيني محمود وأنا لن أرى سوى عينيه فيهما...

كيف سأسمح له بأن يلمس جسدي وقد تحسَّس بنظراته كلّ شبر في جسدي...

كيف سأخونه، بل كيف سأخون الاثنين معا...

إن وافقت فإنني لن أفقده لوحده، بل سأفقد المدينة بكل تفاصيلها التي أعشق...

كيف سأنتظر الشتاء في العام القادم وأنا أنتظره من أجل أن أحتفل بميلاد أول لقاء لنا فيه، من سيدفئني غيره، فمع سواه كل النظرات ستكون جليدا يحتلني ويحيلني إلى تمثال، مجرد تمثال عار من أية مشاعر.

من سيسابق الهواء قبل أن يسرق القطرات المنزلقة على وجهي فيتلقاها بأصابعه غيره هو...

فأيّ رجل هو وقد تمكن من التجوال في قلبي المظلم فأناره بنظراته المتوهجة...

كل الرجال متشابهون إلا هو، فكأنه قادم من زمن آخر، زمن كان الرجال فيه مختلفين، لا ينهزمون أبدا، ينتصرون في جميع معاركهم فمن أين سآتي بواحد يشبهه وأنا إذا فقدته فقدت ذلك الاختلاف واستسلمت للتشابه الذي يعتريهم جميعًا، والنفس البشرية تميل إلى الاختلاف وتمقت التشابه.

آه من مشاعر سيحركها بأطيافه اللامرئية، آه من شتاء سيأتي وأكون عاجزة فيه عن الاجتماع به تحت المطر، وألف آه من مرافِئ ستضيع في أزقة المدن، كم من اعتذار سأقدم له كلّما أقبل على عناقي أو تحسّس جسدي بأصابع باردة، وكم من الاعتذارات المؤجلة سأخبِّئ لأقدمها له في عالم لا يشبه هذا العالم، فهل سيشفع لي وقتها إذا قايضته على عناق دافِئ وطويل...

- أنا موافقة يا سيدي!!

قالتها فسقط قلبها، كلمة موافقة كانت بمثابة خريف لمشاعرها، منذ هذه اللحظة عاهدت نفسها أن تصبح تمثالاً من الجص، كان نعيم يرتدي معطفًا أسودَ بلون شعره الأسود الفحمي له قامة شبيهة بأشجار السنديان، ونظرات قادرة على أنْ تصهر مشاعر أية امرأة في العالم، أمّا باقي التفاصيل فهي غير مهمة، لمحته من بعيد قادمًا يرافق عمّها أكرم بعد انتهاء الدوام المدرسي، يومها رأت هالة عظيمة تحيط به، ولم تستطع منع نفسها من التحديق، هي لا تعلم ما الذي أثارها به ذلك اليوم، ولا حتى لما ارتجفت مع أنّها لم تكن تشعر بالبرد.

"مرحبا يا عمي، أقدم لك زميلي في العمل".

مدّ يده نحوها:

- مرحبا أنا نعيم...

صافحته ولم تستطع أن تزيح نظرها عنه.

- وأنا زينب.

ومن يومها كان نعيم قد اختطف مشاعرها لكن بإرادتها، عشقته لدرجة الموت، تنام فينام طيفه معها، تستيقظ فيرافقها أينما ذهبت، كانت لا تزال طالبة في المدرسة الثانوية وقدمت لقضاء إجازة مع عمها، فوجدت الحبّ ينتظرها هناك ليغرز أنيابه في قلبها كأنّها كانا نوتتين تبعثرتا وتجمع شتاتهما في لقائهما الأول، فهل البحر والميناء والشتاء اتفقوا على جمع شتات الأشياء المبعثرة الجميلة فكانا من ضمن هذه الأشياء...

ماذا عساي أقول لك عندما تأتي، هل أقول لك بأني أهلت رماد الانتظار على جمار الشوق ودفنتك معها؟ هل أعترف لك بأني سمعتك تئن تحت وطأة الاختناق لكني تجاهلتك وتركتك تختنق وظللت أستمع إلى أنينك إلى أنْ خفت وانطفأ... ستقول لي خائنة، وأنا سأجيبك بأن العادات هي التي خانت، ستقول لي كاذبة، وسأجيبك بأنَّ الانتظار هو الذي كذب.

كم وقفت على تلك الجمار التي كانت تثير الرغبة بداخلي إليك، لكنك لم تأت ولم يأت شتاؤُك هذا العام، رأيت جلدي ينصهر فوق جمار الشوق، وأنت لم تأت بعد، فخنقتك مع جمار لهفتي تحت الرماد وأقمت الحداد على موتك، وأصبحت الفصول ثلاثًا عندما سقط شتاؤك من القائمة، وأنا...، وأنا سقط قلبي وذهب معه ولم يعد إلى الآن.

(25)

كان هذا العام كقارب نجاة فقد مجدافيه بعد أن ابتلعهما حوت الظلم الجائع.

.....

مضى عام 1939م على عائلة الحاج أسعد وكانت أيامه ثقيلة ومرهقة والأسباب كثيرة كان أصعبها خسارة مساحات كبيرة من الأرض لصالح اليهود، بالإضافة إلى خسارة الأرواح، بالإضافة إلى الهمّ الذي أرّق العائلة فزينب لم ترزق للآن بمولود.

فكم من المرات تحملت زينب كلام حماتها القاسي عندما كانت تكلم محمودًا وترفع صوتها تتعمد بذلك أن تُسمِعها ما كانت تقول، فكأنما كانت تطبق المثل القائل (على عيني واسمعي يا جارة).

هي لم تعلم بأنها مهما رفعت من صوتها فإن زينب لن تسمعها، زينب الهائمة أمام نافذتها المفتوحة تمدّ يديها لقطرات المطر، زينب التي سافرت نحو ذلك المقعد حيث نعيم لا زال هناك ينتظر مجيئها بفارغ الصبر في عالمها الماسي، وبعيدة كلّ البعد عن هذا العالم الزجاجي الهشّ.

تسربت إلى أنفها رائحة الميناء ورائحة بقايا شهوة لم تنكسر لمدينة تترنح في زاوية لأحد الملاهي الليلة، ورائحة عرق السفن المتعبة التي تستريح على تلك المياه الزرقاء اللاهثة، والأهم رائحة نعيم الممزوجة برائحة المطر، فكم مرة همست له: "لا تتعطر بغير عطر لقائنا الأول".

آه لو أن رائحة الأجساد تستقطر في زجاجات نحملها معنا أينما ذهبنا.

أيا رجلاً برائحة المطر، هلا أهديتني قطرات من عطرك أتجرعه سمّا زؤامًا، اسمح لي بالموت على كتفيك فأنا المعذبة التي ما فتئت تراقص أطياف لقائنا الأول.

أيا رجلاً معجونا بأصوات النوارس وهدير الأمواج الغاضبة، إنّي أشم رائحة الرغبة في سواد معطفك كلما بلله مطر الاشتياق.

تنفرج أسارير محمود عندما يدخل فيكتشف بأنّها لم تسمع شيئًا، يبدأ بمغازلتها بكلمات تحمل الكثير من الحبّ بين طياتها وغالبًا ما تنتهي بليلة تستسلم بها جوارحها له، أمّا المشاعر فتقف هناك تتمرد على المشهد الذي تبدو به كدمية من القماش.

(26)

ناجي يجلس إلى جوار زينب على مقعد في حديقة المصحّ، وقد اخترقت نظراتها الجدران إلى ما هو خارجها.

"فإلى أي زمن وصلت يا عائدة" قال في نفسه وأمسك يدها النحيلة "ما بك يا صديقتي وبمَ تفكرين؟"

فأشارت إلى مكان بعيد ويبدو بأنها تشاهد شيئا لا يراه غيرها وقالت بصوت متعب حزين:

هناك يا دكتور حلمنا، وهناك توسدنا جميع أماني الغد من غير أن نعلم شيئا عن ذلك الغد وكيف سيكون؟ هناك تحت زيتونة كرمنا دفنت أسرار طفولتي وكل أجزائي، هناك لا زلت أرى جدي وهو يرتدي قمبازه الرمادي المقلم وكوفيته ويجلس على مقعده ويحشو غليونه بالتبغ، ثم يحدق بالأمس تارة وبالحاضر تارة أخرى، أمّا الغد فمات قبل أن يولد، هناك ما زال جدي يحفظ التاريخ وما زال يحكيه، هناك ما زال يحبني ويوسع لي مكانا إلى جانبه لأشاطره التحديق، لكنني لم أفلح إلا بالتحديق في الماضي ذلك الذي رقص على أوراق الليمون التي ماتت تحت أقدام الغرباء، تحت مدفعهم، فأقاموا عليها تمثالا لهم.

هناك التفتُّ إلى جدي ووجهت له السؤال الأصعب، هل ستعترف الأرض يوما بما حصل؟ أم أنها ستدعي بأنها كانت نائمة؟ فأجابني، ومن سيصدقها مع كل ذلك البلل الذي لن تجففه حرارة الشمس يوما! كيف

تبقى نائمة مع كل تلك الفوضى والعويل! إلا إن كانوا قد عصبوا عينيها وأصموا أذنيها حتى لا تشهد على جرائمهم! وحتى لو حاولوا تمويه الحقائق فستقف الجدران والأبواب وحتى أزهار اللوز وهي مقتولة في مهدها، ستنتفض كلّها وستخبر بما رأت.

قد داسوا ظلالنا في أزقة الحارات القديمة يا جدي، وقتلوها كما قتلوا الفجر في عينيها.

بكت زينب كما ناجي، وبعد أن سكنا، قال لها:

شيء يشدني نحوك بقوة يا عائدة، شيء يمنعني من النوم لم أجد له تفسيرا، فمن تكونين؟؟؟؟

(27)

العام (1940)

سيولد الياسمين في الشتاء هذا العام.

هكذا قال جدي ، لكن السؤال المحير، ألن يصيبه البرد؟ أم تراه سيرتدي رداء عمي الصوفي ويزهر على أبواب بيوت قريتنا!

دخلت زينب بيت جدّها أسعد ذات نهار بعد انتهاء يوم دراسي منهك، نهار كانوني شديد البرودة تنبِئ درجات حرارته بأنَّ زائرًا سيأتي خلسة هذه الليلة ليغزل للقرية ذاك الرّداء الناصع البياض.

كانت قد لفّت شالاً صوفيًّا على كتفيها، وأول شيء فكرت به هو دخول الديوانية لرؤية جدّها، ولما فتحت الباب وجدته برفقة صديقه المخلص وأسراب من غمامات الدخان تسافر بصمت عبر النافذة المفتوحة، أصوات طقطقة ضلوع الحطب داخل الكانون في زاوية الديوانية تقطع الصمت الذي اعتراها، عتمة تسود أجواء الديوانية بسبب الغيوم السوداء التي تشكلت في السماء وجثمت فوق جسد القرية، فأعطت شعورا باقتراب حلول الليل مع أنَّ النهار لا يزال في منتصفه، اقتربت من جدّها بخطوات خفيفة فقطعت حبال أفكاره عندما تنبه لدخولها، حلفت أنْ تسلم عليه وهو جالس فاستجاب لرغبتها، قبلت يده وأخلى لها مكانًا بجواره وقريبا من الكانون.

وبعد أن اطمَأنَّ كلّ منهما على أخبار الآخر، صمتا قليلا ورحلت نظرة منها إلى داخل الكانون، فإذا بالجمار التي ولِدت للتو تحدق بها بعيون محمرة وتلتمع وسط الرماد الذي أحاط بها كذئاب تترصد فريستها وسط الظلام، أخافها المشهد فأشاحت بوجهها عن الكانون، أحسّ جدّها بارتباكها فسألها:

شو فيك يا سيدي؟

فأجأبته أن لاشيء لكنها تريد الذهاب لوقت قصير لتسلم على أمها.

خرجت زينب من الديوانية بعد أن تركت جدها والقلق يسيطر عليه بسببها.

رذاذ خفيف يتساقط من السماء لامس شعرها المموج، استفزّها للنظر إلى الأعلى فانزلقت قطراته على وجهها الأبيض، فزاده أنوثة عندما نفرت حمرة خفيفة على وجنتيها بسبب البرودة، فتذكرت أصابعه الدافئة، وانتعشت روحها العطشى، فكم نحن بحاجة إلى أشياء تستفزّ الفرح المدفون بداخلنا لتجبره على الخروج، وهذا بالضبط ما فعله رذاذ المطر، بعكس تلك الجمرات التي استدعت خوفًا تولد بداخل زينب، لم تكن له نطفة أصلاً لكنه تولد حال أن نظرت إليها وهي داخل الكانون، فقد شعرت وقتها بأنَّ الأيام القادمة تمثلت على هيئة تلك الجمرات المخيفة، فرأت فيها البؤس والشقاء القادمين، فارتعدت أوصالها وأشاحت بنظرها عنها بحركة لا إرادية منها، أحسّ جدّها تلك اللحظة بارتباكها وتوترها.

دخلت المطبخ حيث وجدت أمّها، وزوجة عمّها أيوب، وطفليها يلعبان حولها، قبلت يد أمها واحتضنتها ثم سلمت على زوجة عمها

وقبلت الطفلين، وبعد أن اطمأنت عليهم عادت أدراجها إلى الديوانية حيث جدّها.

عندما غادرت المطبخ أغراها مقعد جدّها وسحبها لتجلس عليه فكأنما هو الآخر كان قد اشتاق إليها، سارت نحوه فتحسّست أوراق الزيتونة التي تقبع فوقه، وتحجب الرؤية، لولا تلك الفراغات القليلة التي انتثرت بين الأوراق والأغصان.

كم هي يانعة وصبورة تلك الزيتونة، قالت في نفسها، ثم احتضنت أحد الأغصان بكفيها وتابعت تقول، فكيف تصبر على هذا الكم من البرد دون أن تتلفع برداء دافِئ؟

جلست على المقعد أرادت ألاحتفال بلقائها الأول، تمنّت أن يأتيها طيف نعيم، لكن طيف عمها أيوب كان أسرع امتثالاً أمامها تمثل لها وكان حزينا جدا، أيوب الذي فُرضت عليه زوجة لم يكن ليحبها يوماً.

ترى كيف أنجب منها عمي أطفالاً وهو لا يطيقها...

هل هو الخوف مما سيقوله الناس من حوله، هل خشي أيوب أنْ يظن الناس بأنه ليس برجل، أم أنّه أراد المحافظة على النسل فتعامل معها كحاضنة لأولاده...!

وكيف كان شعورها هي...

هل تقبلت الأمور على ما هي عليه وقبلت بهذا الوضع لظنّها بأنَّ الزواج فقط أولاد ومأكل ومشرب، على عكس أيوب الذي لم يكن ليقبل بزواج تقليدي وكان يقول دائما بأنه سيحبّ أولاً، ثم يتزوج لأن الزواج ليس فقط إنجاب وإنما تآلف أرواح وانصهار قلوب بحرارة الحبّ، فكيف

وقد كان أيوب عاشقًا ولسنوات، كيف وقد كانت تلك الشقراء تملأ حياته فرحًا وسعادة...! لكم تشبهني يا عمي، مسكين عمي أيوب لم يفرح بحياته.

ثم ذهبت بها الذاكرة إلى تلك الليلة التي اصطدمت بها وجهًا لوجه مع حقيقة اكتشفتها، عندما تسربت روائح ملعونة مع أنفاس عمّها لو اشتمها جدّها لمات من لحظته، إنها رائحة ذلك الشراب الملعون (العرق)، أسرّتها زينب بنفسها ولم تخبر أحدًا بها واكتشفت يومها أن ما خبأه عمها ذات يوم تحت الكرسي بعد أن اشتراه من حانوت يعقوب ما هو إلا عرق، فما أثقل ذلك السرّ الذي أخفته عن الجميع ولم تستطع البوح به لأحد، وما أصعب تلك الأسرار التي تجبر رأسك على ابتلاعها لتكتشف بعد فترة أنّها عسيرة على الهضم فتلتصق بك لتجعلك تهذي بها وأنت نائم.

انزلقت على وجهها قطرات المطر التي لم تتخلف عن الاحتفال وغابت الأصابع والمعطف، فبكت حتى اختلطت دموعها الحارة بتلك القطرات الباردة فتبخرت، فأنتشلت نفسها من المقعد سريعًا وهرولت نحو الديوانية فإذا بجدها ينتظر قدومها ليطمئن عليها.

سألها جدها عن سبب القلق والخوف الذين لمحهما في عينيها، وهل هناك ما يزعجها؟ فأجابته بأن لا شيء يقلقها أو يخيفها، وبررت تخوفه هذا بمحبته الزائدة لها، وعندما سألت جدها عن عمها بكر وأين يغيب في جو كهذا، أجابها جدّها بأنه خرج منذ الصباح الباكر ولم يعد.

"إنت غشيمة عن عمك بكر يا سيدي؟ مهو طول عمره هيك وما بتشوفيه إلا راجع عالبيت."

على الأقل بكر ليس كأيوب فمن الممكن أن يكون الآن عند ضريح ما أو في أحد حوانيت القدس، فقد أخبر أحد الجيران مرة بأنّه قد رآه يعطي صرة لامرأة هي أمّ لأيتام.

عندما شكا الجدّ لحفيدته زيارات عمّها أكرم التي أصبحت شحيحة جدّا، إذ كان يكتفي بمكالمة أو اثنتين في الأسبوع، برّرت زينب هذا بالمخاطر التي تحفّ الطريق الطويلة بين يافا ودير ياسين، فيقتنع الجد ويكتفي بالصمت وهزّ الرأس مرات عديدة، كانت زينب تظن أن عمها يغيب لأنه مع الثوار فقط، لكنها لم تكن تعلم بأنه متزوج منذ زمن طويل وأصغر أولاده يصغرها بسنوات فقط.

– من زمان يا سيدي ما حدا خبرني بآخر المستجدات في فلسطين!

– فيه خبر حلو يا سيدي، بتعرف المنظمة الإرهابية الإيرغون.

هزّ الجدّ رأسه بالإيجاب.

– الله يجيب الأخبار الحلوة، ومن لا يعرف هذه المنظمة اليمينية المتطرفة التي أسسها فلاديمير جابوتنسكي.

– فطس جابوتنسكي يا سيدي.

تهلل وجه الحاج أسعد وقال:

– الله لا يرحمه، وأردف: يسلم ثمك على هالخبر.

.....

غفت دير ياسين تلك الليلة وقد غطاها الثلج فغدت في الصباح كحمامة فردت جناحيها وحلقت في السماء، كان صباحًا هادئا، فغالبًا ما يتزين

الكون بالصمت بعد أن روض الرياح فصمتت، فليت الحياة تتوقف عند هذا اللون وتتماهى فيه وتتقمصه.

(28)

كتبت زينب في إحدى قصاصاتها:

كم من المرات عصروا الضوء فينا ثم نهبوه، وأسكنوا بداخلنا الليل الطويل، هم من حمّلونا طيف الوطن حفنة من ألم العبور على جمار الموت، هم من قتلوا فينا الحياة فتسابقت دماؤنا إلى مقابرها الجماعية بعد أن أحرقوا عرائس اللوز وأجبروا أشجارها على الحداد، لكننا سننتصر يوما حتى لو أجبروا الفرح على الانتحار على أعواد مشانقهم فجذوره في أرضنا لا زالت تنتظر ماء الرجوع.

إلى أين يظنون بأنهم ذاهبون بكل تلك الجماجم، ألم يكتشفوا بأنها لم تفقد ذاكرتها، وأنها لا زالت تحتفظ برائحة رصاصاتهم وأقدامهم، وستعود يومًا لتقتل الغدر المتاخم لجيناتهم.

ألا زالوا يتذكرون ذلك المساء الذي جلس يرتجف وقد اشتم رائحة بنادقهم ورشاشاتهم السريعة، أخبروهم بأنها ستنكسر أمام سلاح العودة وحتى لو كان العبور فوق جسور الموت.

(29)

لا أعلم من الذي سكن في الآخر أهو الغياب الذي سكننا أم نحن من سكناه!!

.....

زينب تركض باكية عبر زقاق الحارات هابطة نحو حارة بيت جدها، حافية القدمين منكوشة الشعر وزوجها يجري خلفها ولا يستطيع إدراكها، فكأنما الخبر الذي قدم إليها من بيت جدها قد منحها طاقة لم تكن لتمتلكها في أحوالها العادية، ركضت حتى أدمت أشواك الطريق وحصياتها قدميها، واختلط بكاؤُها ونواحها بلهاثها.

وصلت إلى بيت جدّها دخلت إلى الديوانية وقد اكتظت برجال القرية، لكنّها لم تبال لأحد فهي لم تر أمامها إلا جدّها، زينة العائلة ورأس الهرم فيها، فرحتها في الحياة، لقد رحل، رحل الحاج أسعد، رحل في الفترة التي كانت فيها بأشد الحاجة إليه، إلى حنانه وحكمته، جثت على ركبتيها عند رأسه وكشفت الغطاء فغشيتها أنواره وكان بكامل هيبة الحضور والغياب معًا، متناقضان، فها هو الجسد يحضر وتغيب عنه الروح لكن لهما لقاء قريب تحت التراب، مررت أصابعها من بين خصلات شعره الفضية فتبللت أصابعها بالعرق الطاهر ثم مررتها على رقعة وجهه الأبيض، تحسّست عنقه إنّه لا زال ساخنًا وكأنه لم يمت، فصرخت: "سيدي لساته عايش مش ميت جيبوا طبيب".

وانتابتها نوبة هستيرية ثم أغمي عليها، أبكت زينب جميع من حضر في الديوانية ذلك اليوم.

وعندما استيقظت كانت مراسم الدفن قد انتهت، انتفضت وذهبت إلى ديوانية جدّها، فتحت بابها ودخلتها، اشتمت رائحة جسد جدها، فهي ما زالت تعبق بأثاثها.

صمتٌ اعترى المكان وسكون رهيب إلا من صرير مشاعر مهشَّمة بعد أن سارت فوقها ذكريات ولدت للتو، فراغ شاسع في آخره دوامة قطرها جبل من الغياب، حدقت بها ودعتها بنظراتها الماكرة لتقترب، ففيها راحة المعذبين، مارست جميع أساليب الإغواء ودعتها لتتذوق حلاوة حضنها ورائحتها المعتقة برائحة كل الراحلين، وهي تقف أمامها كالبلهاء تحدق بها، فتصرخ الدوامة تعالي، لكنها تتسمر في مكانها رافضة التقدم نحوها، فتأكل نفسها وتغرق في بحرها وتغلق، ينتهي المشهد أمامها فتتسرب الدموع على طول خديها.

تبحث عن غليون جدّها الأبنوسي الذي لم يفارقه يومًا، قلبت الوسائد فإذا به وحيد حزين كأنما توارى عن الأنظار ليبكي صاحبه، حملته برفق بين يديها وضعته بين شفتيها وأطبقتهما عليه ثم سحبته بلين، بحثت عن علبة التبغ حتى عثرت عليها، قامت بحشو الغليون وقد كانت ماهرة في ذلك فقد كان جدها أحيانا يسمح لها بحشوه، أشعلت عود ثقاب ومررته على التبغ كما كان جدها يفعل، وعندما تأكدت من اشتعاله قامت بسحب نفس، فسعلت، وتذكرت عندما كانت ترجوه ذات يوم أن يسمح لها بشفطة، وعندما سمح لها أخذت تسعل فربت على كتفها وقال لها: "الله لا يعطيك العافية بدك تفضحينا بأمك."

بكت بمراره وهي تقول: "آآآآآه يا جدي من سيربت اليوم على كتفي، من سيدللني، من سيجلس معي تحت الزيتونة على مقعدنا، ومن سيحبني مثلك من يا جدي."

ناحت كالثكلى وسحبت أنفاسًا عديدة وقامت بحشو الغليون عدة مرات حتى عمّ الدخان أرجاء الغرفة حتى غشيَها ضباب كثيف، ثم تمدّدت على فرشة جدّها واحتضنت الغليون كأنها بذلك تحتضن جدها، تحدثت إلى طيفه: "ماذا سأفعل من بعدك يا جدي وماذا سأقول لمقعدك، من سيجلس معي عليه ويحدق في البعيد فيسقيني الحياة كؤوسًا من أمل، أخبرني من سينتظرني كل أسبوع ويعد الدقائق شوقًا لرؤيتي، من سيخبئني تحت معطفه ويحميني من برد الحياة..."

غفت بعد أنْ هدَّها الحزن، فرأت جدّها في الحلم، وكم كانت فرحتها كبيرة عندما رأته يجلس على طرف نهر ضاحكًا مستبشرًا، اندفعت بكامل قوتها فرأت نفسها وقد عادت طفلة صغيرة، فاندست في حضنه كما كانت تفعل وسألته عن غليونه، فأجابها بأنه في هذا المكان لا حاجة للغليون، وقال لها: "تعلمين يا زينب بأنني لا أحبّ أن أرى الدموع في عينيك، هل تعدينني بأنك لن تبكي بعد اليوم!".

استيقظت من غفوتها وهي مطمئنة النفس، فأمسكت بالغليون ولفّته بمنديل جدّها مع علبة التبغ وأخذتهما وغادرت الديوانية.

مضت أيام العزاء الأولى للحاج أسعد وكان البيت قد لبس ثوب الحداد والحزن والصمت، حتى الأطفال عكفوا عن اللعب واتخذوا زوايا الغرف يتحدثون فيها عن جدهم.

أكرم لم يعد ولم يتصل كعادته أيضًا، فكانت رؤيته قد ذهبت حسرة في قلب الحاج أسعد الذي تمنى رجوعه ذات صباح...

أيوب ازداد غيابه بعد موت أبيه، بكر اتخذ من إحدى المغر الموجودة في أطراف القرية خلوة له، أبو خالد بعد موت ابنته نجوى كان قد أصيب بالشلل والتزم بيته منذ زمن، همّ العائلة أصبح من نصيب أبي سالم.

فأين ذهبت تلك الأيام التي ما كان البيت يخلو من جلاسه، لا شيء يبقى على حاله، فلا البيت بقي كما هو ولا ناسه أيضًا.

(30)

العام (1942)

كنا نحلم بأن يزهر الوطن يومًا رغمًا عن أنف هذا الذبول وكل تلك النكسات والتوارخ العمياء الممتلئة بنا....

.....

علم أبو سالم بخبر اعتقال أخيه أكرم من قبل الشرطة البريطانية التي قبضت عليه مع مجموعة من الثوار أثناء أحد اجتماعاتهم السريّة في يافا، فأسرَّ الخبر في نفسه لأنَّ العائلة لم تكن قادرة على احتمال مصيبة جديدة بعد وفاة الحاج أسعد، خصوصًا بعد انتشار خبر الموافقة على تحويل فلسطين إلى كومنولث يهودي، فالذبابة التي رضعت حليب الخنزيرة لم تكتف به، وذهبت تفتش عن مصدر إضافي لأنها لم تكن تشبع، فقام اليهود بعد أن خططوا بكل دهاء إلى إرسال بن غورين وهو الزعيم الصهيوني مندوبًا عن الوكالة اليهودية إلى الولايات المتحدة حيث قام هناك بعقد مؤتمر بيلتمور دعا من خلاله كبار الصهاينة ليستميلهم إلى الموافقة على تحويل فلسطين إلى كومنولث يهودي، وفعلاً حدث ما خططوا له فتمت الموافقة من قبل كبار الصهاينة الذين حضروا المؤتمر ودعموه بكلّ ما استطاعوا، فكان هذا القرار هجومًا مباشرًا على الكتاب الأبيض الذي أصدرته بريطانيا عام 1939م لتحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بل ويعتبر هذا القرار أشد خطرًا من

وعد بلفور الذي اقتصر على إقامة وطن يهودي في فلسطين، فحظي اليهود بذلك على دعم دولة عظمى استطاعت الإطاحة بقوة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وحصلوا بذلك على مصدر جديد للحليب أكثر سخاء أضافوه إلى المصدر السابق.

موت الحاج أسعد وغياب حكمته عن البيت، غياب بكر، أيوب الذي لم يكن يحضر إلى البيت إلا إذا تأكد من نوم أخيه بالإضافة إلى إدمانه على شرب العرق فوجوده بات كعدمه، أكرم في المعتقلات ولا أخبار عنه، جبال من الهموم رست على كتفي أبي سالم، سالم الذي ترك العمل في الكسارة التي كان يعمل بها بسبب إصابة في يده فعمل نادلاً في أحد المعسكرات البريطانية كجاسوس لمصلحة قريته باتفاق سريّ مع المختار وكبار رجالات القرية، زينب التي لم تُرزق بحمل.

خيوط السعادة انسحبت مع موت الحاج أسعد وغيابه عن البيت الذي اكتسب لونا قاتما بعد رحيله (فالكبار في البيت هم مغزل السعادة وألوانها، وبغيابهم ينكسر المغزل وتبهت الألوان)

قررت أن تذهب لرؤية عمها بالرغم من وعورة الطريق المؤدية إليه، فقد كانت بحاجة إلى دعاء عمّها والحصول على بركته، علّ نفسها تخضرُّ من جديد بعد أن يبِست أغصانها وسكنتها الغربان وغادرتها السنونوات وطيور الكناري.

أخذت مونة لعمّها وضعتها داخل حقيبة قماشية علقتها على كتفها، وانطلقت، سارت كثيرا، حتى شعرت بأنّ عضلات ساقيها تتمزق، فالطريق كانت طويلة وموحشة، فكّرت أنْ تستريح قليلا لكنها أرادت أن تتمم الزيارة قبل مغيب الشمس، ابتعدت كثيرًا عن القرية فشعرت

بالوحشة، حثّت خطاها بالرغم من وعورة الطريق التي كانت تعترضها، كان المكان خاليًا تمامًا من البشر وصامتًا إلا من أصوات بعض الطيور الجارحة التي كانت تجوب السماء محدقة بالأرض على أمل أن يقع بصرها الحاد على فريسة تسدّ بها جوعها وجوع صغارها، أرعبها صوت زعيقها وصداه الذي كان يتردّد على أذنيها بسبب الفراغ الشاسع بين المرتفعات، هرولت قليلاً حتى تختصر المسافة، تسربت رائحة الزعتر البري إلى داخل أنفها، أخذت نفسًا عميقًا، أحست ببرودة منعشة وإحساس لم تشعر به منذ زمن طويل، سارت كثيرا حتى اهترأت قدماها، وأخيرًا ها هي على مشارف مغارة عمّها، وقفت على مكان مرتفع وكانت الطبيعة قد نحتت المغارة داخل خاصرة جبل مرتفع، إنّها أمامها الآن يفصلها عنها واد شديد الوعورة، كيف يعيش عمي في هذا المكان الموحش... ثم نادت بأعلى صوتها: "يا عمي أنا زينب أنا هون." عاد صدى صوتها إليها، لم يخرج بكر، أعادت الكرّة مرات عديدة حتى تسرب إليها اليأس، فهمّت بالعودة وقد انتابها الحزن الشديد على فشلها في لقاء عمها، وأثناء ذلك كانت يد تحط برفق على كتفها، أصابتها برعشة شديدة في جسدها، ولكنّها عندما التفتت للخلف كان عمّها بكامل هيبته يبحلق بها ويلومها بنظراته على مجيئها عبر الطريق الوعر إلى هذا المكان الخالي، فما كان منها إلا أن احتضنته بشدة قائلة: "رعبتني كثير يا عمي."

جلست على صخرة توسطت المكان وجلس بكر أمامها مقرفصًا على ركبتيه وقد طالت لحيته وازداد بياضها، كان صامتًا جدا كعادته، قلب كفّيه وتمتم بكلمات خرجت على شكل تأتأة فهمت منها أن لماذا خاطرت بنفسها بالمجيء لوحدها إلى هذا المكان النائي؟

بكت زينب في حضرة عمّها الصوفي وقالت:

- تعبت من الحياة يا عمي وما شفت إلا ورجليا بتجيبني لعندك،ادعيلي يا عمي.

تأتأ بكلمتين:

- بتيجي مريم.

- مين مريم يا عمي، أمانة تحكيلي.

لم يجبها عمها واكتفى برفع كفيه للأعلى.

بعد أن جلست عنده قرابة الساعة أشار لها بأن تغادر قبل حلول الظلام.

ورافقها حتى أوصلها إلى بداية الطريق المؤدي للقرية، وهنا قبّلت يده وودعته وقلبها قد اتسع بعد أن ضاقت حدوده حتى كادت تطبق على قلبها وتتسبّب له بموت أكيد، غادرت وكانت كأنما غمامة الحزن التي حلّقت في سماء قلبها قد بعثرتها شمس دعاء عمّها، فعادت وهي مطمئنة النفس مجبورة الخاطر، فعرجت على قبر جدّها جلست عنده وقتًا قصيرًا دعت له ثم سلمت عليه وكانت خيوط الشمس في الأفق قد انسلت تاركة خلفها غروبًا يئن تحت وطأة الوقت، فأسرعت خشية أن يدركها الظلام.

(31)

سألت ناجي ذات زيارة: هل تعرف يا دكتور ما هي قصة الهنود الحمر؟

فأجابها بأن الشيء الذي يعرفه أنهم السكان الأصليون لأميركا.

فسألته إذا كان يعرف شيئا عن تاريخهم؟

أخبرها بأنه لا يعرف سوى أن الأوربيين الدخلاء قاموا باغتصاب أراضيهم ثم أبادوا أكثرهم.

قالت إذن استمع سأحدثك بقصة حصلت مع زعيم إحدى قبائلهم:

بعد أن تنازل عن قريته من غير أن يعلم قال: "إن كل ما فعلته هو أنني لمست ورقة بريشة إوزة، دون أن أعرف أنني بتلك الفعلة كنت أوافق على التنازل عن قريتي."

هذه العبارة يا دكتور قالها زعيم قبيلة سوك الهندية بعد أن لجأ زعماء القبائل المتبقية إلى الطاولة الأميركية للمفاوضات بعد أن ملّوا من حصدهم بشكل حيواني، فقام الأميركيون بتوقيعهم على ورقة لا قيمة لها، لكنها كانت كفيلة بإبعاد القبائل كلّها عن أراضيها.

فقيل فيما بعد، بأن ريشة الإوزة لا زالت تتحكم إلى الآن بمصير أحفاد زعيم قبيلة سوك، حيث قاموا بجمعهم في محميات تشبه محميات الحيوانات.

- لعلك الآن تتساءَل لما أطرح تلك القصة؟

– بالفعل يا عائدة، ولا أنكر أهمية تلك القصة التي تكمن في كشف الستار عن حقائق جهلناها، وهي تشبه حقائق نعيشها نحن وعاشها أجدادنا من قبلنا، لكن أكملي يا عائدة فقد راق لي حديثك.

– السؤال الذي يخطر في بالي يا دكتور هو: هل من أبعدنا نحن عن أرضنا هي ريشة الإوزة نفسها، لكنهم يتقنون القراءة والكتابة؟ أم أنهم كزعيم قبيلة سوك يجهلون القراءة والكتابة ولم يكتشفوا الفخ الذي وقعوا به إلا عندما ضاع شعب كامل أمام أعينهم، فنُكّل بهم واغتصبت أراضيهم وبيوتهم وأنشئت لهم مخيمات تفتقر إلى أقل ما يحتاج إليه الآدمي؟ فهل التاريخ يعيد نفسه؟؟

– اِسمحي لي بالإجابة على سؤالك مع علمي الكامل بأنك تعرفين الإجابة، إن من وقع بريشة الإوزة على مصيرنا كان يعرف القراءة والكتابة، ولم تكن نيته حمايتنا كزعيم سوك الذي كان يظن بأنه يحمي أفراد قبيلته، أنت موسوعة يا عائدة.

– انتظر، انتظر يا دكتور إن هذه الكلمة ليست غريبة عليّ...

صمتت قليلا وصمت ناجي وهو ينتظر أن تتذكر شيئًا، أغمضت عينيها طويلاً، وهو يدقق بتفاصيلها وينتظر علّها تسترجع شيئا مهما!

فتحت عينيها وافترت ابتسامة من ثغرها:

– قد كنت دائما أنعت أحد أعمامي بالموسوعة لما كان يزخر به دماغه من ثقافة واسعة، لكنني للأسف لم أستطع تذكر اسمه.

– أنت تتقدمين بشكل جيد ويجب أن تتولد لديك الإرادة لتحثي دماغك على استعادة ذاكرتك، يجب أن تكون ذاكرتنا مكتملة بكل ما في

حياتنا من متناقضات لأنّ تفاصيل الإنسان لا تكتمل وهو مقيد بذاكرة منقوصة تتقبل الفرح وترفض الحزن.

(32)

نهاية كانون أول من عام 1943م

انسحبت زينب من فراشها وكان الظلام لا يزال فاردا أجنحته على الكون مسرعة إلى دورة المياه دون أن يشعر بها أحد، وهناك أخرجت كل ما كان في جوفها ثم نظرت إلى نفسها في المرآة فلمحت صفرة غريبة ارتدتها بشرة وجهها، لمت شعرها الذي تناثر على كتفيها وكومته خلف رأسها، دبت قشعريرة في أوصالها أعادتها إلى فراشها بسرعة.

زينب التي عادت ذات زيارة لعمها بكر مجبورة الخاطر تكتشف بأنها حبلى.

فتستذكر كلماته عندما قال لها بأن مريم ستأتي، فتفرح كثيرا وتحدث نفسها التي اشتاقت لطفل يؤنس الخراب الذي أصاب روحها بعد غياب جدها:

"إذن إنها مريم يا عمي، مريم التي ستكون طوق النور الذي سيضيء عتمات روحي ويشتت أعشاش الغربان التي سكنت أغصانها، ماء الحياة الذي سيعيد العمر الذي تاه مني ذات يوم في أحد أزقة الحياة ، إذن هي مريم يا عمي، الوعد الذي تمنيت أن يتحقق ذات يوم، ها هو قادم إليّ."

مريم النطفة الطاهرة تكبر في رحم أمها لتولد كحمامة بيضاء، وعلى الطرف الآخر كانت دولة اليهود يرقة قذره تنمو وتكبر بعد أن حصلت على دعم أميركا لها، فتمرّدت على خنزيرتها الأولى بعد أن فقست عن ذبابة

قذرة وانقلب السحر على الساحر، فقد ثارت ثائرتها ليس فقط على أهل فلسطين بل وصل بهم أن تمردت على بريطانيا، فهؤلاء هم اليهود دائما يعضون اليد التي امتدت إليهم.

فمهما غيرت الذبابة من عاداتها لتتقمص دور النحلة، لن يكون مكانها على الأزهار، لأنّ الذاكرة ستخونها دوما، وستذهب بها لتحط على رؤوس المزابل.

(33)

قال لي جدي ذات يوم:

هل سنلتقط يومًا وحشة بيوتنا وحقولنا وصباح قريتنا الذي كان يشرق على قلوبنا قبل أن يشرق على الأرض؟

نعم يا جدي فقد التقطها كلّ من عاش من أبنائها بعد تلك المعركة التي لم تكن متكافئة الأطراف، لو رأيت يا جدي أشعة الشمس بعد انتهاء المعركة، لو رأيتها وهي تتجول على أرض القرية وتقلب بيديها الجثث وبقايا الأشجار المحترقة الثكلى التي أسقطت أزهارها، حتى بقايا البيوت قلبتها بين يديها، لقد بكت كل شيء، بكتها ذلك اليوم حرارة لاهبة مع أن الوقت ليس بصيف.

قد كان قلب قريتنا يا جدي ينبض بنشاط أبنائه الذين ما فتئوا يستيقظون قبل الفجر ينتظرون بزوغه على أصوات ديكة الحي، ورائحة ازهار الليمون وروائح خبز الطابون، أمّا الآن فقد توقف النبض وماتت الديكة وأصبح الطابون رمادا ودفنت أزهار الليمون مع أصحابها، الآن من ينظر إليها يرى خرائب من بقايا بيوت ظلّت واقفة بكل صمود لتقول لمن سيأتي بعد عقود بأنَّ قرية تضج بالحياة كانت هنا، وشجرة سنديان رفضت السقوط لكنها اختارت لها بين القبور مقامًا لتقول لكل من يمر بها، بأن شعبا سيصنع من الرفات جسورا للعودة والعبور.

(34)

بأي كلمات ننعى ذاك الصباح...
بأي دموع نغسل جراح فقدنا وبأي حنين نوقظ طرق الغياب...؟؟

العام (1944)

ها هي مريم الحمامة البيضاء التي وهبها الله لزينب تُسقى من ماء محبة العائلة جميعها، فتكبر وتزداد جمالا بشعرها الأسود الزنبركي، وبياض بشرتها ورمادية حدقتيها، فلقد جلبت معها الفرح لعائلة أبي سالم لولا أحداث تلك الليلة التي زادت أبا سالم عمرًا على عمره عندما كان عائدًا من صلاة العشاء، فإذا بأيوب يرتمي عند البوابة الرئيسية للبيت مبللاً سرواله وغائبًا عن الوعي، سقط قلب أبي سالم عندما لمح أخاه من بعيد وهو على تلك الحال، لكنه عندما اقترب منه واشتم به رائحة العرق أمسكه من ذراعه وسحبه للداخل، فقد كان جسده مرتخيًا من فرط ما شرب، عندها خرجت أم سالم وزوجة أيوب فنهرهما أبو سالم وأمر كلاً منهما بالدخول إلى غرفتها فاستجابتا.

أيوب ممدَّد على أرضية الديوانية لا يعي أي شيء، أبو سالم يحضر إبريقا من الماء ويصبه على رأسه، ينتفض أيوب الذي لا زال تحت تأثير العرق ويحاول الوقوف لكنه لا يستطيع، صرخ أبو سالم: "عرق يا عايب؟ من إيمتى ولاد الحج أسعد بيسكروا!".

ثم انقض عليه وأمسك بتلابيبه وضربه حتى كاد يموت بين يديه دون أية مقاومة من أيوب، وعندما شفا غليله، حبا على ركبتيه إلى أن وصل إلى الجدار، أرخى ظهره عليه ومدّ ذراعيه للأعلى وشبك يديه وألقاهما على رأسه، وبدأ ينتحب كالمرأة نادبًا حظه العثر من الدنيا.

عندما استعاد أيوب وعيه لم ينطق بأي حرف بل سحب جسده الذي لا يزال مرتخيا واتجه إلى غرفته، ألقى بنفسه على أقرب مكان وغط في نوم عميق بالرغم من الألم الذي خلفته لكمات أخيه على وجهه.

كان صباحا حزينا عندما لملم أيوب أغراضه بعد أن تأكد من خروج أخيه من البيت، فاصطحب زوجته التي رفضت الذهاب معه بداية لكنها أذعنت بعد صفعة قوية على وجهها ندم عليها أيوب فيما بعد.

الصمت هو خط الدفاع الوحيد الذي امتلكه أيوب تلك الليلة، وحتى عندما غادر البيت غادره بكل صمت، فأي قوة يمتلك هذا المسمى بالصمت؟؟

خرج وترك خلفه صمته، غضبه، خيباته، أنفاس العرق، قلبًا يترنح خلف باب غرفته ودموعًا بقي أثرها، نعم لقد بكى عندما أجبر على زواج لا يريده، توارى مثل طفل خلف الباب، حتى الرجال يبكون، وأيوب بكى طيف امرأة ظلّ لأعوام يعشق رائحة جسدها، وملمس شعرها ولونه الأشقر، بكى كثيرا وترك هذا كلّه خلفه، ترك كوليرا فتاكة معدية، نعم أكوامًا منها قادرة على قتلنا جميعا لو أنهم لم يغلقوا باب الغرفة وأخفوا مفتاحها تحت أكوام التبن.

عاتبت زينب أباها ولامته كثيرا، واعترف وقتها أبو سالم بأنه أخطأ في حق أخيه لكن وكما يقال سبق السيف العذل.

اختفى أيوب نهائيا من دير ياسين، وباءت كل محاولة لهم بالعثور عليه بالفشل.

شعر أبو سالم بأنه وحيد، وأنه افتقد ذلك القمر الذي كان يجمع حوله النجوم بكلّ محبة.

"آه يا أبي –قال أبو سالم–لقد انفرطت خرزات المسبحة وتشتت شملها في متاهات الأيام، فكيف لي بإعادتها إلى خيطها المتين بعد أن انقطع؟؟".

مضى هذا العام وقد تجرأت الأفعى على عض ذيلها، فها هي العصابتان الإرهابيتان شتيرن وإرغون تلتحمان بهدف القيام بعمليات إرهابية مشتركة ضدّ بريطانيا، فأصبحت أرض فلسطين ملحمة دارت بها رحى الصهيونية لطحن ربيبتها بريطانيا وذرّ رمادها في عيونها.

(35)

زينب التي بدأت ذاكرتها بالتحسن كثيرا تفتقد طبيبها العزيز هذا الأسبوع، فمنذ أشهر لم يتغيب ناجي ولا مرة واحدة عن زيارتها.

أين أنت يا دكتور... فقد استطاعت زينب استعادة ذاكرتها بالكامل واكتملت تلك التفاصيل بعد اجتماع المتناقضين، الحزن والفرح، ويا له من إنجاز عظيم يُسجل لك أيها الإنسان الطبيب.

زينب تكتب قصاصاتها ولا تتوقف، فقد ساعدتها الكتابة على التخفيف من آلامها ومعاناتها، وها هي تكتب وتناجي جدها الحبيب أسعد فتقول:

الربيع ذلك العام لا يشبه نفسه أبدًا، فكيف قلت لي يا جدي بأن الربيع يتشابه كل عام؟ هل كنت تكذب، أم أن هنالك من رتب له بأن يكون مختلفًا هذا العام؟ فها قد أتى بلا ألوان ولا روائح إلا من لون رمادي لقنبلة انفجرت هنا ورصاصة ثقبت جدارا هناك، حتى لون الورد يا جدي لم يكن يشبه لونه المعتاد، فقد رأيته وهو يتقمص لون الدم ولون الدخان.

أتعلم ما حدث أيضًا يا جدي؟

الفراشات التي طالما كانت تتنقل بين الأزهار كل ربيع، انتحرت على التماع الرصاصات الخارجة من فوهات البنادق، والسماء أتدري ما حصل لها؟ لقد ارتدت لون الحداد باكرا وخبأت قمرها ونجومها في جرابها الأسود خجلاً مما رأت، والكروم لو تعلم ما حصل لها! انكمشت على نفسها كورقة نهاية الخريف، فكان ربيع ذاك العام خريفًا مات به كلّ شيء،

حتى جدران البيت لم تسلم، قتلتها القنابل، فتعانقت حجارتها بعد السقوط، والزجاج يا جدي تغرب عن نوافذه وتهشم، وانغرزت شظاياه في عيون البيت فأعمتها، نعم لقد أصبح البيت أعمى، فأظلم كل شيء من حوله.

عن ماذا أحدثك أيضًا، هل تعلم يا جدي بأنهم سرقوك من الخزانة عندما سرقوا قمبازك المخبأ وكوفية أبي البيضاء، وثوب أمي المطرز، سرقوا كل عائلتي، حتى رداء عمي بكر سرقوه، أخبرني كيف سيرقص عمي رقصته الصوفية عندما يعود؟؟

أخبرني هل ستنسى ذاكرة المكان ما فعلوا؟؟؟

القسم الثاني

قال لي جدي يوما:
كم من السنين ستصمد صورة قريتنا وهي
معلقة على جدران الذاكرة دون أن
تسقط...؟

(1)

أواخر العام (1947)

صوت انفجار يهزّ جدران بيت أبي سالم، مريم التي تنام في بيت جدها مع أمها وقد تفتحت كزهرة أقحوان وقت الصباح، تصرخ وقد أرعبها ذلك الصوت، تحتضن الأم ابنتها، تهدهدها في محاولة لتهدئتها، لكن لا فائدة فقد كان صوت الانفجار قريبًا جدًا، ويتكرر كل بضع دقائق، تضمها زينب إلى صدرها وتتوجه نحو غرفة والديها، يخرج الأب والأم من غرفتهما على صراخ مريم، يتناولها أبو سالم ويحيطها بذراعيه، فتهدأ، فحضن الأجداد دافِئ ويشعر بالسكينة والطمأنينة.

سألت زينب أباها عما يحصل، فأجابها بأنها أصوات لانفجارات قادمة من الأحياء القريبة، ثم قال:

– الله يستر، الوضع خطير يابه يا زينب، ما كفاهم استولوا على (لفتا[1]) وهجروا أهلها!

– إذن هي عملية تطهير لجميع الأحياء والقرى المحيطة بالقدس ويبدو يا أبي بأن الدور قادم على دير ياسين.

لم تستطع عائلة أبي سالم النوم تلك الليلة كما باقي عائلات قرية دير ياسين.

---

1 – لفتا من القرى المحيطة بمدينة القدس، وقد خلت من سكانها الأصليين بعد تهجيرهم من قبل العصابات الصهيونية.

كان رجال القرية قد اجتمعوا مع المختار وخرجوا بعدة قرارات وإجراءات، منها ابتعاث وفد من شبان القرية إلى مصر لشراء السلاح وحتى لو كانت بنادق من مخلفات الحرب العالمية الثانية، المهم أنه سلاح قد يقيهم شرّ اليهود، كان من ضمن من ذهبوا سالم وجمال أولاد أبي سالم ومحمود زوج زينب، وشبان آخرون من القرية.

قالت الأمهات وهن يودعن أولادهن ويبتلعن خوفهن لئلا يراه الأولاد فيضعفوا: "الله يسهل عليكم."

فنساء القرية كُنَّ قد تبرعن بمصاغهن لشراء هذه البنادق، وقد كان الوضع المادي لعائلات دير ياسين ميسورا، حيث تعتبر دير ياسين من القرى الغنية ومحط أطماع لليهود.

من الإجراءات التي قاموا بتنفيذها أيضا حفر خندق، والهدف منه قطع الطريق الرئيسية الموصلة إلى المستعمرة الأقرب لهم، وهي مستعمرة غفعت شاؤول فيما إذا فكرت أية مصفحة يهودية أن تتقدم نحو القرية، فقاموا بعد الانتهاء منه بتغطيته بأغصان تعلوها طبقة ترابية بهدف التمويه.

بعد الانتهاء من هذا الجهد الاستثنائي، قام المختار بجمع الشبان في بيته، وتناول معهم طعام الغداء تقديرًا منه ومن أهل القرية لهم على جهدهم العظيم، ثم قام بحثِّهم على التكاتف والتعاون لتجاوز هذه الأزمة، وقدم لهم أحد الرجال الذين اشتركوا في ثورة عام (1936م) ليقوم بتدريبهم على استعمال السلاح، وتعليمهم بعض التكتيكات الحربية التي تلزم أي مقاتل.

وعندما سأل أحدهم عن كيفية الذهاب إلى القدس، بعد أن أغلق اليهود الطريق السريع الذي كان يصل بين دير ياسين والقدس، وكان يمرّ بمستعمرة غفعت شاؤول، ردّ المختار: "إقرع لا تناقر وإعور لا تداقر."

الفكرة التي وصلت لجميع الحاضرين أنه لا يريد منهم استفزاز اليهود لأي سبب كان، حتى لا يتخذوها حجة لمهاجمتهم وتهجيرهم من قريتهم كما حصل مع القرى المجاورة، حيث قال:

"اسمعوا يا جماعة وافهموا شو بدي أقوللكم، لا عددنا ولا عدتنا بتوصل واحد بالمية من عددهم وسلاحهم، هم مدعومين وأكيد سمعتوا عن الشحنات اللي كانت بتتهرب الهم عن طريق البحر من المنظمات الصهيونية الخارجية، عصاباتهم مدربة مش عصابات عادية، هذول عصابات إرهابية ما بتخاف الله وما عندها ذمة ولا ضمير، لا تفهموا كلامي غلط، إحنا مش جبنا، إحنا أرجل منهم لكن زي ما بيقول المثل (إبعد عن الشر وغنيله) وبالنسبة للقدس بنقدر نروحلها عن طريق عين كارم أو المالحة، بعرف المسافة بتحتاج منكم حوالي ست ساعات بس أمرنا لله، ولا تروحوا إلا للضروره".

تلك الليلة قام المختار بتقسيم الحراسات الليلية على شبان القرية بالتناوب، فكان المختار ورجالات القرية نعم الرجال ونساؤها نعم النساء عندما اتحدوا وكانوا جسدا واحدا لا يفرقهم إلا الموت.

(2)

بعد غياب دام أكثر من أسبوعين دخل ناجي غرفة زينب وكان هو المريض هذه المرة، وقد جاءَها طالبًا الدواء لروحه، انهار بين يديها ذلك اليوم، ولما بكى موت أبيه، أصابت قلبها وخزة كادت تقتلها، ثم وحين طلبت منه أن يحدثها عن أبيه، حدثها عنه بإسهاب فشعرت بأن ناجي لا يتحدث عن شخص غريب عنها بل لقد كان هذا شخصًا هو أقرب إليها من روحها، وافترشت الأرض يومها وضغطت رأسها بقوة بكلتا يديها، فقد أرادت اعتصار الذاكرة التي كانت تتأرجح ما بين التذكر وعدمه.

هذه الذاكرة التعسة كيف استطاعت قبل أسبوع أن تستحضر الأسماء ثم تستلها منها بكلّ لؤم الآن، فهل كان سحرا أم أن ذاكرتها تعاندها، بؤسًا لها إذن.

بكت زينب على حالتها وقالت أنا لم أعد أريد خريطة لذاكرتي المهشمة المذبوحة، سأبحث عن ممحاة لأمحو بها جميع ملامح تلك الخريطة، فأنا لا أريد الذكريات، ففنجان قهوتك الفارغ يا جدي يدميني، ورغيف خبزك المشوه يا أمي يميتني قهرا و(سباطك) المثقوب يا أبي يرهق رأسي، وبدأت تدق رأسها بكلتا يديها وتقول: راسي الذي تحول إلى تلك الصخرة التي كنا ندقّ بها حبات الزيتون، إنها تقتلني حدّ الموت."

أمسك ناجي بيديها وقد أنساه يأسها مصيبته: "ما بك يا عائدة؟ إهدأي أرجوك."

لم تهدأ ذلك اليوم بل اجتاحتها نوبة من اليأس، لكن بالرغم من ذلك فقد توقع ناجي بأن ذاكرتها ستعود لها قريبا، لأنها بدأت تؤلمها عندما أخذت باستعادة شريطٍ يبدو بأنه مثقل بالأحداث.

(3)

مطلع العام (1948)

"استمع يا محمد هناك صوت قادم من جهة الكروم" قال أحد الشبان.

محمد ابن أبي سالم يجلس للحراسة تلك الليلة مع بعض شبان القرية، وقد كانوا أربعة، وأثناء الحراسة سمع أحدهم وقع خطى بين الكروم، قادمًا من جهة مستعمرة غفعت شاؤول، انتصب أربعتهم ووقفوا على أقدامهم بهدوء وتقدم اثنان منهم لاستيضاح الأمر، أمّا الآخرون فقد ثبتوا في مكانهم لطلب المساعدة إن حدث طارِئ ما، محمد كان من الاثنين اللذين تقدّما للأمام، وما أن ساروا عدة خطوات حتى كانت ظهرت أمامهم فتاة بملابس ممزقة لم تستر جسدها الأبيض الذي كشفته أنوار القمر، أشاح محمد بوجهه بعيدا عنها قائلاً: "أعوذ بالله من وين طلعتلنا هالمرة؟"

في حين لم يستطع الآخر مقاومة جمال الفتاة، فوقف مشدوهًا أمامها وأخذ يحدق بها، فسحبه محمد عنوة، وأسرعا حيث الاثنان الآخران، حيث خاطبهم محمد قائلاً: "يا شباب احنا واقعين في ورطه ما بحلها إلا المختار."

وقد ارتأى محمد أنه من الحكمة ابتعاث صديقه الذي أدهشه جمال الفتاة لإحضار المختار، "بلا ما يعملنا مصيبة" قال محمد في نفسه.

وبعد انتظار كان كدهر بالنسبة للشبان وصل المختار أخيرًا وعندما وقعت عيناه على الفتاة قال: "هاذي ما بتبات هون، اثنين منكم ييجوا معي يا شباب."

اقتادوا الفتاة التي لم تتكلم بحرف إلى مستعمرة غفعت شاؤول، وكانت دير ياسين قد تفاهمت مع وجهاء تلك المستعمرة على أن لا يتعدى أحد حدود الآخر، وكان هذا بعد أن حاول يهودي التعدي على إحدى الكسارات التي تخص أهل القرية.

ازداد حرص أهل دير ياسين بعد هذه الحادثة وأصبحوا أكثر حيطة، أبو سالم يوصي زوجته بأن تخبر زينب أن لا تخرج لوحدها مع الصغيرة، وأن تلتزم بيتها إلى أن يعود زوجها من مصر خصوصاً بعد وقوع حادثة مشابهة لفتاة أخرى، وكل مرة كانت تعاد فيها الفتاتان يدعي اليهود بأنهما مختلتان عقليا، والحقيقة هي أن اليهود كانوا يتجسسون على أماكن الحراسة من خلال تلك الحيلة التي كانوا يفتعلونها كلّ مرة.

"إنهم يبيتون نية سيئة لنا، ربنا يستر، محدش يترك ورديته يا شباب وخليكم مفتحين عيونكم عشرة على عشرة، اليهود غدارين والله أعلم شو مبيتين النا." قال المختار محذرا شبان القرية.

(4)

فتحت حقيبة ذاكرتها ذلك اليوم فوجدت بها جثثا، أشلاء ممزقة، بقايا طوابين، أثوابًا مطرزة، عرائس من قماش، غليونًا أبنوسيًّا، ملكيات أراض وبيوت، أشجار لوز وزيتون، غرفة أيوب المغلقة بكل ما تحمل من بكتيريا كوليرا، معطفًا أسود، ميناءً حزينًا، ترابًا مخلوطًا بعرق، معاولَ، صبارات مع منحدرها، كأن هذه الحقيبة المخبأة كانت بمثابة جواز سفر للعبور إلى تلك الذاكرة المعطوبة، فقالت:

– أنا زينب ربحي أسعد ولدت في قرية دير ياسين لأسرة مكونة من جدي الحاج أسعد، وأبي وأمي وإخوتي سالم وجمال ومحمد، أعمامي بكر ومحمد وأيوب وأكرم.

انهار ولم يعد قادرًا على الوقوف على رجليه، فاتخذ الأرض ملاذا لجسده.

– ما بك يا دكتور؟

– أكملي يا زينب، هيا أكملي ودعك مني.

قالها وهو يلتقط أنفاسه، قالها والدموع قد بدأت تنزل كشلال يحاول إزاحتها بظاهر كفّه لكن لا راد لها اليوم إلا بأمر الله، استجابت زينب قائلة:

تلك الليلة وتحديدا عندما دخلنا لعبة الذات رغمًا عنّا، خسرناها، وفي الواقع لم نكن قد خسرناها فقط تلك الليلة، إنما الخسارة الكبرى كانت منذ

أعوام كثيرة منذ كانت ذواتنا ضحية وعد، حينئذ كذبنا ما حصل وقلنا مجرد وعد ولن يتحقق فطالما حنث البعض بوعودهم ، كنا متأكدين بأن هذا الوعد حقيقة، لكن كنا نكذبه لسبب واحد وهو أننا أردنا البقاء على قيد الوطن، لكننا في النهاية فقدنا الوطن وفقدنا الذات وانتصر الوعد.

ذلك الفجرالرمادي امتصّ ألوان الربيع، امتص ألوان الأقحوان والبنفسج. صمتت هنيهة، ثم واصلت:

نعم لقد رأيت الألوان وهي تتماهى وتتقمص لون الحزن والذبول، أتعلم يا دكتور، لقد أخرسوا أغاني الربيع بعد أن قتلوها، ثم وضعوا بصمة حمراء على قرص الشمس لنظل طوال حياتنا نهذي بلون الدم كلما رفعنا رؤوسنا للسماء، حتى تلك الصور المعلقة على جدران الغرف لا أعلم ما أخبارها، هل ما زالت معلقة هناك أم أنها تتبعت أثر من غادروا؟

صمتت وماتت الدموع في عينيها فلم تبك هذه المرة كعادتها، فقال ناجي:

ثم ماذا يا عائدة، أقصد يا زينب؟

الليل يا دكتور همس لي وقتها بأنه سيغادر لو نحن غادرنا، فرجوته بأن يبقى ليحرس البيوت والكروم ويؤنس وحدتها، حتى إنّي وعدته بأن أزوجه للريح بعد أن أعود، فهل تراه ما زال ينتظر عودتي أم أن جدائله السود قد شابت من طول الانتظار؟ والريح هل عساها ما تزال قادرة على أن تكون الوتر الذي يعزف على عود غيابنا، أم أنها هرمت وأقلعت عن العزف مذ غادرنا؟

انهارت وجلست أمام ناجي ووضعت يديها على ركبتيه، ولأول مرة تلمح في عينيه نظرات ضعف لم تعهدها من قبل، حدق في عينيها ثم وجه سؤالاً إليها:

هل نستطيع يا زينب أن نكسر مرايانا العتيقة كي لا نضطر أن نرى ذكرياتنا كلما نظرنا إلى أنفسنا فيها؟

هزت زينب برأسها وأشارت بالنفي، ثم قالت:

قد سألت جدي مرة السؤال ذاته وكان معلمي الأول، أتعلم ما الذي قاله لي؟

قال لي جدي: "نحن بحاجة لرؤية تلك الذكريات حتى لو كانت مؤلمة لأنها تذكرنا بشيء لنا وسُرق منا، فهل نطمس ماضينا وننسف هويتنا بأيدينا؟ فبعض المرايا جوازات سفر إلى أنفسنا كي لا ننسى من نحن وأين كنا ذات وقت".

هزّ ناجي رأسه بالإيجاب وقال: قد صدق جدنا يا زينب.

جدنا؟ إنه جدي أنا، وانقضت عليه وهزته بعنف، من أنت؟ هل يخصّك جدي؟ وارتفع صوتها، أخبرني هيا فطالما شعرت بأنك تخصني وأن الدم الذي يسري في دمي، هو نفسه يسري في دمك، فمن أنت؟ إنك تلعب بأعصابي فبماذا تختلف عمن سبقك من الأطباء؟ قل أو اخرج من هنا ولا تعد.

وعندما أخبرها بأن والده هو عمها أكرم، عمّها الذي تحب، ارتخى رأسها للأسفل وتدلى بين كتفيها بعد أن ارتكزت بيديها على الأرض وتركت العنان لخيول دموعها بأن تنطلق من حلبتها:

عمي أكرم لم يتزوج!!!

قالتها بصوت واهن ويائس، ثم واصلت:

كم من المرات سمعت جدي يرجوه أن يتزوج ليرى أولاده قبل أن يموت، لكنه كان يقنع جدي بأنه سيلبي طلبه عندما يستقر في دير ياسين، فيسكت جدي ويسلم أمره إلى الله، مات المسكين وظلّ زواج عمي غصة في حلقه، هو لم يتزوج، أتفهم؟

ثم تأتأت بعبارة كانت قاسية على ناجي:

أو ربما كان يكذب عليه! الحمد لله أن جدي مات قبل أن يكتشف أن ابنه الغالي كان يكذب عليه!

- أبي لا يكذب يا زينب.

قالها بحنق، وتابع:

وأنت أعلم الناس بأنه صادق، لكن ما حصل كان خارج إرادته، هو لم يتجرأ بأن يخبر جدي لأن جدتي يهودية.

أصيبت زينب بصدمة أشد من الأولى، فقهقت بصوت عال.

- تقول يهودية؟ كيف حصل ذلك، أخبرني كيف يتزوج امرأة أمها يهودية؟

- اهدأي يا زينب فجدتي من يهود فلسطين وليست من الصهاينة.

- هههه، قهقهت مرة أخرى ولكن بصوت أعلى من المرة الأولى، تقول من يهود فلسطين!! أجبني... ألم يتعاون يهود فلسطين مع الصهاينة ضدنا؟؟

ما الذي تهذي به يا دكتور؟ أم أنك بذلك تعطي جدتك صكوك غفران، هل ننسى ذلك الهجوم الدموي الذي كان محملاً بكل معاني العنصرية والتحوصل في الذات والاعتزاز بها وكره الآخر والاشمئزاز منه؟؟

ثم ضحكت وواصلت:

أكيد فهم كما يدعون شعب الله المختار، ونحن يطلقون علينا الأغيار.

أتعلم أيضا بأن ما حصل في دير ياسين كان بسبب فكرة! نعم لقد كانت فكرة طفت على رأس أحد قادة عصابتي الإرغون وشتيرن، ثم غاصت بداخله، أتعلم لماذا؟ حتى يصنعوا لأنفسهم حلّة جميلة يرتدونها في فيتريناتهم، ليلفتوا أنظار المجتمع اليهودي إليهم، هل سمعت بفكرة قتلت شعبًا؟ نعم لقد قُتلنا وشُردنا بسبب فكرة.

ما حصل لنا يا دكتور هو معادلة غير منطقية أبدًا، فأيّ منطق هذا الذي يجعل من مجموعات كانت منبوذة في مجتمعاتها، معزولة داخل (غيتو[2]) تفتقر لأقل ما يحتاجه الآدمي، أن تصبح أسيادا علينا؟

وماذا أخبرك أيضا؟ هل سمعت بتلك الليلة التي نكل بها النازيون بأحياء اليهود وقتلوهم وحرقوهم داخل بيوتهم؟ هل سمعت بليلة كريستالناخت؟ لقد كانت ليلة الهجوم على دير ياسين أصعب بكثير من تلك الليلة، ما فعلوه بنا أبشع بكثير مما فعله النازيون بهم، هل عرفت الآن من هم اليهود؟ هيا أجبني؟

2 تسمية للحي المنعزل في المدينة تسكنه الأقليات العرقية أو الدينية، وهو هنا خاص باليهود.

ثم أطلقت العنان لدموعها لتنطلق من محاجرها وأخذت تصرخ بألم، كيف لعمي أن يتزوج امرأة أمها قتلت عائلتي وشعبي؟

إلى أن أغمي عليها.

اضطر ناجي أن يعطيها حقنة مهدئة كي لا تنهار أعصابها وتنتكس حالتها النفسية، وانتظرها طويلا وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ولما لمحها وهي تتململ اقترب منها وجلس على طرف السرير.

عندما استعادت وعيها، وفتحت عينيها وجدته يجلس بقربها ويرجوها بنظراته أن تسامح أباه وتغفر له فعلته، لكنها أشاحت بوجهها عنه، لأول مرة تفعلها زينب مع ناجي، فكانت كأنما أصابت ناجي بسهم مسموم في قلبه، فعاتبها بكلمات، لكنّها ردّت عليه بكلمات جعلته يبكي عندما قالت:

اليهود! وهل أنسى ما فعلوا، هل أنسى يعقوب الذي كان صديقًا لعمي أيوب عندما قام بإلقاء قنبلة على باب بيتنا فأرغمه على السقوط، ثم دخل وبيده رشاش فقام برشق من تبقى من عائلتي بقلب بارد جدا، وهل أنسى منظر أمي وهي تنوح وتصف ما فعلوه بزوجة أخي سالم الحامل بشهرها الأخير عندما بقروا بطنها وأخرجو جنينها وراهنوا على جنسه ثم قتلوه، وقتلوا بقية أطفالها وعمي المقعد وزوجته، هل تتخيل بأن هناك بشرًا يقدم على قتل جنين لم يزل في بطن أمه؟ ما جريمته؟ هل قبضوا عليه وهو يمسك بندقيه ويصوبها نحوهم؟ لكنه الحقد الذي يرتع في قلوبهم؟ يحقدون حتى على أجنتنا التي لم تتنفس أكسجين الدنيا بعد، ولم تعرف إلا عالمها.

هل أنت متخيل مقدار تلك المهزلة؟ يراهنون على جنس جنين ثم يقتلونه!!!

هل أنسى أمي وهي تصرخ بصمت وتكتم أنفاسها بعد أن كومت طرف ملاءَتها تحت أسنانها، وعضت عليها لئلا تقطع لسانها من هول ما رأت، هل أنسى يعقوب الذي اقترب من جثة عمي أيوب وركل رأسه ببسطاره ثم بصق عليه، هل هنالك انتهاك للإنسانية أكثر من هذا؟؟ وهل أنسى إسحاق ذلك الولد الذي شاهدته مرة في حي اليهود بالقرب من حانوت يعقوب الكلب؟ هل أنسى عندما دخل بعد أن أنهى يعقوب مهمته بقتل عائلتي فقام هو بالإجهاز على أمي التي كانت تئن وتتضرج بدمائها؟

هل أنسى عندما تمتم قائلاً: "الموت للعرب، الموت لك يا أبي..."

ثم قالت: سأبحث عنك يا إسحاق وسأقتلك عندما أعثر عليك هذا وعد مني وأنت أيضًا يا يعقوب العجوز لن تفلت مني إذا لم يكن الموت قد سبقني إليك.

وأخي سالم كيف أنساه عندما تدلت جثته من السلم بعد أن قنصه أحدهم وهو يحاول الصعود ليأخذ مكان أبي المصاب؟ لن أنسى أمي وهي تصرخ من هول المنظر عندما رأت خيوط الدم وهي تسيل من فمه ورأسه على درجات السلم.

فقال ناجي بحزن:

- وأنا يا زينب لن أنسى الأسرى الذين طوفت بهم العصابات الصهيونية أحياء القدس اليهودية، وسط شتمهم وقذفهم بالقاذورات، لن أنسى كم من الحرائر اغتصبوا، لن أنسى الرجال الذين عصبوا عيونهم ورشقوهم بالرصاص فكان نصيب الواحد منهم عشرات الرصاصات، نعم يمتلكون فائضًا من رصاص أميريكا المجاني، لن أنسى يتامى دير

ياسين وهم يجولون شوارع القدس يبحثون عن ملجأ لهم من الفقد وصوت الانفجارات.

– تقول لن تنسى، وأنت لم تشاهد، فكيف لو شاهدت! والمشاهدة يا دكتور تختلف كثيرًا عن السمع.

صرخ بها ناجي:

– وأنا فلسطيني مثلك تماما، تتحدثين إلي وكأنني يهودي، استيقظي يا زينب، أولست ابن عمك؟ أنا من لحمك ودمك ولا ذنب لي إذا ولدتُ لجدة يهودية.

ثم ساد صمت بينهما وكلّ منهما يحدّق بالآخر، وهدأت أخيراً، فوضع يده على كتفها ووعدها بأنه سيحميها ولن يتخلى عنها إن سمحت له بالبقاء، وإن لم تسمح ففي كلا الحالتين هو لن يتركها أبدا.

قالت زينب بعد أن سكنت نفسها:

أريد أن تبحث عن زوجة عمي أيوب وولديه، لقد كانت آخر كلمة نطق بها عمي هي الناصرة، فلا بدّ بأنهم هناك.

(5)

معبر رفح العام (1948)

تقف سيارة شحن ويفتح بابها للأسفل توضع البنادق التي لفّت بقماش في القاع ثم تسدف سحاحير الخضروات فوقها، وبعد الانتهاء يصعد الشبان إلى الشاحنة وتتحرك في طريقها إلى القدس.

طيلة الطريق ومحمود يقرأ الآية الكريمة "وجعلنا من بين أيديهم سدّا ومن خلفهم سدّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون" ليحجب الله الشاحنة وما تحمل عن أعين الشرطة البريطانية والعصابات الصهيونية.

دخل المغرب عليهم فأطفأ السائق أنوار الشاحنة وسار بأناة ليتجنب إصدار أي صوت قد يجلب لهم ما لا يُحمد عقباه.، ظلّت أيديهم على قلوبهم وألسنتهم تلهج بالدعاء إلى الله ليحفظ تلك الأمانة إلى أن يقوموا بإيصالها إلى القرية.

عندما انتصف الليل كانت الشاحنة قد وصلت إلى أطراف القدس، أنزلت الشبان وتمّ تفريغها من بضاعتها وتأمين دواب كانوا قد اتفقوا مع صاحبها على تجهيزها لهم حال وصولهم، قاموا بتحميل البنادق على الدواب وسلكوا الطرق المهجورة والبعيدة عن أعين دوريات الشرطة البريطانية، فأهل مكة أعلم بشعابها، فقد كان أصحاب الأرض يحفظون مواطِئ أقدامهم.

ساروا لأكثر من ثماني ساعات عبر قرية عين كارم متخذين الطرق الوعرة التي لم تطأها إلا أقدام أهلها، وعندما صاحت الديكة في دير ياسين كانوا قد دخلوها.

لسعات برد نيسان أجبرت الحراس على المشي لتدفئة أجسادهم فقد كانوا يتجنبون إشعال النار لئلا يلفتوا أنظار اليهود إليهم، فسمعوا صوت وقع أقدام وتمتمات قادمة من جهة قرية عين كارم، فأسرعوا بحذر ليتأكدوا من مصدر الصوت، صاح أحد الحراس قائلاً: "مين أنتم، قولوا قبل ما أفرغ الفشك في رووسكم؟"

أنا محمود والشباب، تعالوا ساعدونا، رجلينا وقعت من التعب.

أسرع اثنان منهم والباقي رابطوا في مكانهم كما أمر المختار، اقتادوا الدواب إلى بيت المختار وهناك تمّ تسليم الأمانة.

زار المختار ورجال القرية في اليوم التالي الشبان الذين خاطروا بأنفسهم بالذهاب إلى مصر لإحضار السلاح، واطمأنوا عليهم وكانت الاستخبارات المصرية قد قبضت عليهم في بلدة المنصورة وهم يهمون بشراء السلاح، عندها وصل الخبر إلى المختار، قام بإجراء اتصالاته حيث أفرج عنهم وقام الجيش المصري بإيصالهم مع السلاح إلى معبر رفح.

"الله محيي أصلكم يا شباب" قال رجال القرية، فالجهد الذي قاموا به استثنائي، أثبتوا من خلاله بأنهم رجال يعتمد عليهم في الشدائد.

القسم الثالث

قال لي جدي يومًا: ستزهر البنادق في نيسان.

ها هو التاسع من نيسان قد وصل محملاً بالانتصارات مرة وبالخيبات مرات كثيرة، لكن البنادق أصابها الذبول بعد أن أزهرت يا جدي.

(1)

ليلة التاسع من نيسان العام (1948)

لكل أرض مفاتيح لأسرارها، وفلسطين أرض ولن تعطي المفاتيح إلا لأبنائها، ويبقى مشرد من لا يمتلك المفاتيح، هكذا قال جدّي.

.....

سكت الكون عن الضجيج إلا من أضواء شامتة، وأصوات احتفالات أتت بها الريح من مستعمرة غفعت شاؤول، فرحا بموت عبد القادر الحسيني الذي استشهد عندما اقتحم قلعة القسطل مع عدد قليل من المجاهدين، بغية تخليصها من أيدي العصابات الصهيونية بعد عودته من دمشق خالي اليدين بعد أن خيبت ظنه القيادات العربية هناك، فقرر خوض المعركة، لكن الذخيرة خانت البنادق وخانته معها.

دير ياسين تدخل مرحلة المخاض الأخير فهل ستجهض حملها، أم أن ولادتها ستكتمل وتكون سعيدة؟

سالم الذي يعمل نادلاً في أحد معسكرات الجيش البريطاني كان قد أخبر أباه عن خطة سمع بها قبل أيام، ستنفذها إحدى العصابات الصهيونية المدربة (الهاجاناه) لكنه لم يتمكن من معرفة تفاصيل الخطة، على إثرها اجتمع المختار برجال القرية ليحتاطوا أكثر من ذي قبل ويشدّدوا الحراسة بزيادة عدد الشبان على جهات القرية الأربع.

نام أهل دير ياسين ليلة التاسع من نيسان وكانوا كأنما ينامون على فوهة بركان يستعد للانفجار.

محمود الذي كان قد التحق بعبد القادرالحسيني وقد أودع زوجته وابنته بيت أبيها لم يعد بعد انتهاء المعركة مع من عاد، وزينب تسند ظهرها للجدار بقلبٍ دامٍ، تهدهد وحيدتها بين يديها وتغني لها إلى أنْ سرقها النوم، فتتمدد بجوارها علّ الليل يهديها ولو وقتا قليلاً من النوم، لكنه كان بخيلاً جدًا معها، وبدلاً من النوم بدأ شريط طويل من الذكريات يمرّ أمام عينيها، جعلها تبتسم أحيانًا وتغضب أحيانًا أخرى، ضحكت بصمت وبكت أيضًا بصمت، تذكرت غليون جدها فأسرعت إلى المنديل الذي لفّته به يوم وفاته، أحضرته وفردت المنديل، أخرجت الغليون وعلبة التبغ، تحسَّستهما بأصابعها، أسرعت إلى علبة الثقاب وأحضرتها من المطبخ، قامت بحشوه وأشعلت عود الثقاب وقامت بتمريره على التبغ لكنه أبى أن يشتعل.

"لا بدّ أن رطوبة أصابته، إنها سنوات كثيرة يا جدّي وغليونك ما زال يقيم الحداد على غيابك ويأبى أن يشتعل إلا لك."

قامت بإفراغه من التبغ ونظفته جيدا وأعادت لفّه بالمنديل، ثم خبأته في مكانه وقالت: "ليتنا نستطيع لفّ بعض ذكرياتنا وتخبئتها بمنديل كهذا."

عادت حيث وحيدتها تمددت بجوارها مرة أخرى، وظلت تحاول حتى نامت.

رأت زينب في منامها الفجر حاملا حقائبه المحملة بالأضواء، لكنه كان كئيبا حزينا كأنه عائد من سفر ليموت في أرض عودته، فإذا بصوت الأذان يصدح في أرجاء القرية بالرغم من الرعب والخوف الذي أحاط بها من جهاتها الأربع، إلا أنَّ هذا الصوت كان قادرًا دائما على امتصاص الخوف

من قلبها، فهذا هو الأذان منذ أن أذن بلال يوم فتح مكة إلى فتح بيت المقدس، إلى إقامته في المنابر يوم استعادها صلاح الدين من أيدي الصليبيين، دائما هو في قلوب المؤمنين دائما بداية لفتح جديد، شعرت في المنام كأنه الأذان الأخير في قرية دير ياسين، أحست بالحزن يتسرب إلى قلبها، فظهر عمّها بكر وطلب منها أن لا تحزن لأنه سيعود يوما ليصدح من جديد لبلال، سيولد هنا ولو طال الزمن.

(2)

منتصف ليلة التاسع من نيسان العام (1948)

رابط بعض شبان القرية تلك الليلة عند إحدى الكسارات التي تقع على أحد جانبي الطريق المؤدي إلى مستعمرة غفعت شاؤول، وقبل الفجر لاحظوا أضواء كاشفة لسيارة تدخل المستعمرة وتخرج منها، فقرّروا الاقتراب أكثر لاستطلاع الأمر، وعندها توقفت الحركة وغطت المستعمرة في ظلام دامس وكأن شيئًا لم يكن، قال أحدهم:

"هل كنا نتخيل رؤية الأضواء؟"

فرد آخر عليه:

"إنّ ما رأيناه كان حقيقيًّا وهذه الليلة لا تبشر بخير."

طَرقات خفيفة على باب البيت تتسرب إلى أذني أبي سالم الذي كان مستيقظا ولم ينم لهذه الساعة المتأخرة، يفتح الباب فإذا بالغائب يمتثل أمامه، إنه محمود يحتضن حماه، يستفسر أبو سالم عن سبب غيابه وعدم عودته مع من عاد، فيهمس له بأن رصاصة قد أصابته إصابة خفيفة ألزمته المستشفى لوقت قصير ثم رجاه بأن لا يخبر زينب بهذا الأمر وبعد أن وعده حماه طلب منه رؤيتها.

اجتمع محمود بزينب تلك الليلة لمدة لم تزد عن نصف ساعة ثم غادر بعد أن انحنى على غزالته النائمة ليطبع على جبينها القبلة الأبوية الأخيرة.

وتزود بعناق أخير من زينب، زينب التي لم تستطع أن تحبّه كما أحبّها فكانت دائما قطرات المطر حائلا بينهما وكم هو حظها تعيس أن كانت هذه الليلة تستقبل قطرات لذيذة على جسدها العاري وتتلوى كعاشقة على سرير الكون فهل أرادت إغاظتها، تمنت لو استطاعت أن تحب محمودًا كما أحبت نعيمًا، تمنت لو استطاعت توديع المرافِئ بكل مراكبها، لكنه دفء الأصابع في أول لقاء لها مع الحبّ البكر الذي لم تمسه مشاعر من قبل.

جاء محمود لمدة لا تزيد عن نصف ساعة، وكان يعلم بأنّها المرة الأخيرة فكان وهو يودع مغادرًا كأنما يغادر إلى الموت، الموت الذي دعاه إليه الليلة الفائتة عندما مدّ الشهيد عبد القادر يده نحوه في حلم كأنه يختصر عمرًا كاملاً فرافقه محمود من غير أن يسأله إلى أين؟ ولماذا يسأل طالما المكان الذي سيذهبان إليه أطهر من هذا المكان.

غادر وعندها أطلق العنان لدموعه فتسربت في شعر لحيته التي طالت خلال الأيام الماضية وانسل بسرعة إلى خارج البيت، والتحق بالشبان الذين يحرسون القرية من طرف الكسارة التي كانت تقع على طريق غفعت شاؤول.

(3)

الساعة الثالثة ليلة التاسع من نيسان (1948)

تخرج أم سالم تلك الليلة باكرا جدا تحمل على رأسها صينية العجين، وتنحدر من بيتها الذي يقع في قلب القرية شرقًا عبر الزقاق، وعند نهايته تنحدر شمال شرق متوجهة إلى الفرن هدفها أن يكون الخبز جاهزا عند عودة أولادها الثلاثة من وردية الحراسة عند الفجر.

يلمحها المختار وهو يتمشى أمام بيته تلك الليلة، فينادي عليها ويطلب منها العودة لأن الفرن لم يحمَ بعد، وكان الفرن ملكًا له.

سمعته لكن الغيوم التي ربضت وسط السماء ورذاذ المطر الذي كان ينزل ذلك الوقت منعاها من العودة فأجابته بأنها ستنتظر في الداخل إلى أن يحمى بيت النار.

دخلت الفرن وإذا بها ليست الوحيدة هنا فقد تجمع في الداخل عدد من نساء القرية، جلست أم سالم وكن يقرقرن ويخبرن بأن أجواء هذه الليلة غريبة ولا تطمئن، فتنقل إحداهن بأن زوجها سمع حركة عند مسجد الشيخ ياسين أثناء ورديته، وعندما استطلع الأمر مع من معه لم يجدوا شيئًا غريبًا لكنه أكد بأنهم جميعًا سمعوا تلك الحركة، لتؤكد أخرى بأن ابنها شاهد تجمعات لليهود في مستعمرة غفعت شاؤول.

زينب بعد مغادرة زوجها لم تتمكن من النوم، فتمنت لو كانت رجلاً لتكون داخل الحدث لأنها تريد أن تقدم شيئا لدير ياسين، لكن مريم قصمت ظهرها وأقعدتها كسيحة البيت مكبلة اليدين تحبسها أربعة جدران.

أطبقت جدران الغرفة على صدرها وغدت الأفكار في رأسها كعوادم المركبات فامتلأت رئتاها بأول أكسيد الكربون، كادت تختنق، فانسحبت بسرعة إلى أرض الفناء لأنّها لا تريد أن تختنق بسبب فكرة طفت فوق رأسها.

رفعت نظرها نحو السماء فلمحت كمًّا هائلاً من الحزن بعد أن توارت النجوم خلف الغمامات الداكنة وكأنها تهرب من مسلسل رعب اقترب وقته فتحاشت رؤيته، ناجت زيتونة جدّها واقتربت من مقعده النائم أسفلها وألقت بجسدها عليه بالرغم من تلك النسمات الباردة التي كان الجو ينفثها في الأنحاء.

أبو سالم يخرج من غرفته ويسير نحو ابنته عندما يلمحها بفضل الأضواء الخافتة لمصباح ترك مشتعلاً في الديوانية فتسللت بعض أنواره للخارج، مكنته من رؤيتها، يتقدم نحوها ويحطّ بيده على كتفها وقد كانت مشدوهة ترى مشهدًا خاصًّا بها لا يراه غيرها، ترتعش، فيبادر الأب بالتسمية على ابنته ويستفسر عن استيقاظها في هذه الساعة المتأخرة، وهذا القلق المختبِئ في عينيها!

فتجيب بأنه نفس السبب الذي يقلقه ويسرق النوم من عينيه، إنها الأفكار التي لم تنسحب في الحقيقة ولا زالت تحوم كعقبان جائعة فوق رأسها.

هل ستنسى دير ياسين عندما يحاصرها جليد الغربة؟ وهل ستمحى من ذاكرة الأجيال القادمة ؟ تساءَلت زينب.

فأجاب أبو سالم بأن هذه الأفكار مجرد تهيؤات، ولا تمت للواقع بصلة، فدير ياسين في مأمن بعد أن وقع المختار والوجهاء عريضة مع وجهاء مستعمرة غفعت شاؤول على عدم الاعتداء من قبل الطرفين.

فتصرخ زينب:

لقد اعتدت العصابات الصهيونية على جميع القرى التابعة للقدس حتى هجرها سكانها، فلماذا عساهم يتركون دير ياسين؟

ثم صمتت، وأخذ أبو سالم يفرك أصابع يديه ببعضهما ولم ينطق بحرف.

وواصلت زينب بصوت أقلّ حدة لما لمحت الحزن الذي ارتداه وجه أبيها:

إنّ الخطر قادم يا أبي، وأكثر ما أخافه أن لا نفقد الأرض والبيوت فقط إنما أخشى أن نفقد الأحبة، وها نحن منذ زمن ونحن نكابد الأرق والخوف، إننا يا أبي نعيش حربًا داخلية يزداد خطرها كل لحظة، إننا نعيش ما بين توقع الهجوم في أية لحظة واللاهجوم.

نظر أبو سالم إلى ابنته وهو يدرك تمامًا بأنّ كلّ ما قالته حقيقة فمن الصعب الاستهانة بعقليتها المتفتحة، ومَسَحَ دموعًا لا تزال ساخنة من عينيها.

(4)

الساعة الرابعة وخمسة وعشرون دقيقة التاسع من نيسان (1948)

معركة كبيرة قد تبدأ من حجر صغير مهمل ما زال يغفو على قارعة الطريق.

بالقرب من مسجد الشيخ ياسين وأثناء وردية مجموعة من الشبان من بينهم محمد وسالم يتدحرج حجر بعد أن استيقظ عنوة من نومه.

"يا محمد هل سمعت ما سمعته؟" سالم يستفسر بصوت لا يخلو من القلق.

فيؤكد محمد وبقية الشبان بأنهم سمعوا صوت دحرجة حجر، ويسرعون ليتبينوا الأمر.

أحد أفراد العصابة الصهيونية التي كانت شرذمة منها ستنطلق من هذه النقطة كان قد سمع اسم محمد، فظن بأنه سمع كلمة السرّ التي سيبدأون المعركة عند سماعها، وكانت الكلمة هي (أحدوت) وتعني (وحدة)، فعلت كلمة (لوحيميت) بالعبرية وتعني قتال، فإذا برشقة طلقات ضوئية تنطلق من مدفع رشاش.

إذن لقد بدأت المعركة على دير ياسين، وكانت فعلاً كما قال أحد الشبان ليلة لا تبشر بالخير.

عند مشاهدة الرشقة الضوئية من قبل الشبان صاحوا محذرين بأصوات عالية: "اليهود يهجمون على القرية".

وانطلق عدد منهم ليتمترسوا في قلب القرية لمنع العصابات من الدخول وبالتالي السيطرة عليها، بينما دارت معركة عند مسجد الشيخ ياسين بين رجال القرية الذين كانوا متأهبين لهذ الهجوم المباغت، فعمت الفوضى والصياح أنحاء القرية، وبعد قتال ومواجهة من الطرفين استطاعت العصابات الاستيلاء على المدرسة القريبة من المسجد لحماية نفسها من الرصاص الذي انهال عليها.

لا عهود لليهود فأين هي العريضة التي وقعها وجهاء غفعت شاؤول مع وجهاء القرية؟

(5)

قبيل الخامسة فجرًا التاسع من نيسان (1948)

ها هي البنادق تزهر يا جدي، وها هم أبطال دير ياسين يذهبون إلى الموت دون أن يأتي إليهم.

.....

على الطرف الشرقي من القرية، وبينما نخبة من شبان القرية يتجولون أثناء ورديتهم على تلّ بالقرب من الكسارة القريبة من غفعت شاؤول، إذ بوقع أقدام قادمة من الجهة الشمالية الشرقية للمستعمرة لكنها أصوات بعيدة جدا ولم يسعفهم الجو لرؤية ماذا يحصل هناك بسبب الغيوم التي حجبت ما تبقى من أنوار القمر، وبينما كانوا يحاولون استراق السمع لمعرفة مصدر الأصوات استطاعوا سماع صوت بعيد لاشتباكات تدور في قلب القرية، فما كان منهم إلا أنْ انتقلوا إلى سطح أحد المنازل المشرفة على الخندق الذي كانوا قد جهزوه وعملوا على تمويهه بهدف عرقلة أية مصفحة يهودية تحاول الدخول إلى القرية.

وكما خمنوا حاول اليهود دخول القرية عن طريق إدخال مصفحة تحمل الجنود والأسلحة، لكن الخندق عرقل دخولهم وعندما حاولوا ردمه، سقطت المصفحة بعد أن دارت معركة بينهم وبين شبان القرية الذين تمترسوا على سطح ذلك المنزل، لكن الرصاص خان البنادق بعد أن نفد منهم فما كان أمامهم إلا الانسحاب إلى المرتفعات الغربية من القرية عبر

أشجار الزيتون التي سترت على أشباحهم، وساعدتهم في الوصول إلى هناك، فواصل محمد وجمال مع شبان القرية إلى المرتفعات الغربية وانفصل سالم لينضم إلى أبيه.

حاصرت العصابات المسلحة القرية من جهاتها الأربع لكن أهل دير ياسين دافعوا عنها بشراسة حتى إنّهم تقدموا عليهم وقتلوا منهم الكثير.

كان محمود زوج زينب قناصًا ماهرًا ولم يخطِئْ هدفًا له منذ بدء المعركة، وكان قد تمترس على سطح بيتهم الذي يقع في المرتفعات الغربية للقرية، ومن هذه النقطة بالذات عانت العصابات المسلحة وفقدت الكثير منهم، فقد تمترس إلى جانب محمود جمال أخوه ومحمد بعد انسحابهما من شرقي القرية مع من انسحب.

بعد ساعات من الهجوم، تباكت عصابتا الإرغون وشتيرن على المعركة التي كادتا تخسرانها أمام بنادق عتيقة وذخيرة قليلة، مقابل أسلحتهم الفتاكة من رشيشات سريعة وقنابل، فسارعت عندها عصابة الهاجاناه المدرّبة بجلب المساعدات من مستعمرة غفعت شاؤول لنجدة العصابتين المهزومتين، وتمّ وضع خطة للقضاء على المقاومة.

كانت العصابتان قد شكت من نشاط رجال وقناص لا يخطِئُ هدفه أبدًا يتمترسون في بيت يقع في المرتفعات الغربية للقرية ويشلّ حركتهم، فما كان من الهاجاناة إلا أنْ وجّهوا مدفع هاون كانوا قد أحضروه معهم وأطلقوا القذائف الواحدة تلو الأخرى، إلى أن صمت الرصاص القادم من هناك وصمت محمود ومن معه، لكنه كان صمتا مختلفا، فقد كان صمتا بنكهة الموت فدقت أعراس الموت دفوفها فوق رؤوسهم في زفة مهيبة والمدفع لا زال يهزّ خصره كغجرية وسط جمهور يتساقط من شدة فتنتها.

انتشرت رائحة الموت في سماء دير ياسين وبين أزقتها مع وجودِ لأنفاس لا زالت تتجول بين جثث الموتى وترفض الاستسلام.

(6)

أمّ سالم التي رفضت نصيحة المختار لها بالعودة إلى المنزل تتجرع العلقم والألم كؤوسًا مع بقية النساء اللواتي احتجزن في الفرن، حيث أخذت النساء بالندب والعويل عندما تفاجأن بدخول العصابات الإرهابية إلى القرية فقام الفران حينئذ بإغلاق الباب ظنًّا منه أنه بهذا سينجو مع النساء وصبي الفرن، المسكين لم يعلم بأنّ العصابات سوف تقوم بعد تنفيذ الخطة الجديدة لإسقاط القرية التي عصت عليهم في البداية، بعملية تطهير حتى لأقنة الدجاج، فكيف سينجو وقد قامت العصابات بإلقاء عدة قنابل على باب الفرن أجبرته على السقوط، ثم قاموا بالدخول ورشق الموجودين بالرصاص.

أمُّ سالم وامرأتان استطعن وسط تصاعد الأدخنة وغبار الأتربة الاختباء خلف أكياس الطحين المكومة في طرف الفرن.

راقبت أم سالم المشهد الأكثر إيلامًا عندما قام أحد أفراد العصابة بإلقاء الفرّان والصبي في بيت النار، فكومت طرف ملاءَتها وعضت عليها لئلا تصدر أي صوت فيكون ثمن حياتها رصاصة رخيصة تصوب نحو رأسها.

تمكنت أم سالم من التسلل والهرب بعد خروج الجنود، وها هي تجري بكل ما أوتيت من قوة عبر الزقاق والملاءة لا زالت تتكوم بين أسنانها وتكز عليها بشدة كلما تعثرت بجثة، حتى الدماء التي غرقت بها الجثث لم تطق رؤية نفسها فالتصق منها ما التصق في الحذاء البلاستيكي لأم سالم.

جرت بين الحارات كالمجنونة وهي تهذي بأولادها وزوجها ولم تكن تعلم بأن آخر عهد لها بأولادها سيكون ظهر أمس، عندما طلب منها محمد أصغر أولادها مناقيش زعتر عند عودته من وردية الحراسة.

لقد احترقت المناقيش يا محمد واختلطت بجسد خبازها، وأنت، أين أنت؟ وأين جمال؟ فالسلام وكل السلام لأرواحكما التي ارتقت إلى السماء، أما المناقيش يا محمد فلا زالت هناك في بيت النار تئن تحت وطأة الحرارة ولا خلاص لها من تلك النهمة التي لا تشبع؟

عادت أم سالم وقد اعتلت وجهها صفرة، فهل هي صفرة الموت؟ لا إنها عدوى الموت التي انتقلت إليها وستنقلها بدورها إلى من تبقى على قيد الحياة، تلك العدوى التي رافقتها وهي في طريقها عبر الأزقة، فها هي جارتها تسحب جثة زوجها وكأنها تسحب جذعَ شجرة ميتًا والرشاش فوق رأسها، نعم قد أجبرت على سحبها كما أجبرت على السكوت فكانت ملامحها عادية لا بكاء ولا عويل ولا حتى دمعة واحدة، ولا شيء سوى عينَيْن متحجرتَيْن وجسد متصلب، وكأنها جثة تسحب جثة أخرى، رأتها أم سالم والملاءة لا زالت تحت أسنانها.

طرقت الباب بشدة وهستيرية ففتحت لها زينب، أزاحتها عن طريقها وأغلقت الباب وسحبت ابنتها من يدها، وأسرعت بها حيث مريم ما زالت تغفو.

صرخت زينب:

"أين أبي وإخوتي؟" وانفلتت ببكاء أيقظ مريم، فانتفضت من نومها وبدأت هي الأخرى بالصراخ، لكن لِمَ لم تقل أين زوجي؟ فهل المعطف الأسود هو السبب أم أنها قطرات المطر التي تعمدت السقوط هذه الليلة؟

"سوف يأتون قريبا، وغير مهم أن يكون الخبز طازجا فلدينا بقية منه من الليلة الفائتة." قالتها أم سالم وهي تنشج بصوت يائس.

من أين يأتون يا أم سالم؟ فالأموات لا يعودون، وأموات دير ياسين لو دفع لهم ملء الأرض ذهبا لما قبلوا أن يعودوا.

(7)

كانت تلك الليلة أشبه بالضربة الأخيرة في السيمفونية، حيث أسدل الستار على المسرحية الطويلة لقرية كانت هنا.

.....

أبو سالم يعود ومعه سالم ويتجها مباشرة نحو مخزن التبن، يزيحا خياش التبن بشكل عشوائي وسريع إلى أن يصلا إلى خيشة أخفيت أسفل الكومة الكبيرة، يسحبانها ويخرج أبو سالم خنجره من تحت حزام قمبازه ويحزها بشكل طولي ويُخرج من بين التبن صندوقًا قديمًا أكل منه الصدأ وشبع، يكسر قفله فينفتح عن ذخيرة ليست بالقليلة كان قد اشتراها بعرقه في السنوات الماضية.

يعبئان البندقيتين ثم يتوجه أبو سالم إلى السلم، ويعتلي درجاته بحذر، هدفه الوصول إلى سطح المنزل بحماية من سالم، كلّ هذا وزينب تتربع في أرض الفناء تحتضن مريم في محاولة عاثرة لتهدئتها، ودموع تنزل بصمت بللت عنقها، وأمّ سالم رائحة غادية فكانت خطواتها تصل إلى البوابة الرئيسية ثم تعود حيث زينب المتربعة وسط الفناء تقلّب كفَّيها وتتمتم بكلمات غير مفهومة.

ويبدأ تبادل إطلاق النار مع العصابات اليهودية في محاولة مع بعض الجيران لطردهم من الحارة، وأثناء ذلك يُصاب أبو سالم بذراعه إصابة بسيطة، فقد خدشت الرصاصة طرف الذراع ولم تتمكن من الوصول إلى

العظم أو العصب، تتنبه العائلة التي تتابع الأب من أرض الفناء لما حدث، فتصرخ زينب وأمها لظنهما بأن الإصابة قد تكون خطيرة، في حين يفشل أبو سالم بإخبارهم أنه بخير وأن الجرح بسيط، يسرع سالم باعتلاء درجات السلم حاملا بندقيته على كتفه مالئا جيوب سرواله بالرصاص، تصرخ الأم بولدها بأن لا يتابع الصعود لأن رشقات الرصاص كانت غزيرة.

ليتك استمعت لنداءات أمك ورجاءاتها يا سالم قبل أن تصيب الرصاصة التي أصابت رأسك قلبها.

ها هو سالم يترنح على السلم ثم يتهاوى، فتعلق إحدى قدميه بدرجة من درجاته وينكفِئ للأسفل وخيوط من الدم اللزج تغادر جسده وتنزلق ببطء على الدرجات لتستقر في النهاية على الأرض، تصرخ الأم بأعلى صوتها على سالم الذي سُرقت منه الحياة أمام عينيها، تحاول الوصول لجسده الملقى على درجات السلم فقط لتحتضنه وتودعه، وتقبل الجبين الندي من غير أن تزعج السكون الأبدي الذي اعتراه، لكنها تفشل في محاولتها.

أبو سالم من الأعلى يصرخ بزوجته بأن تسكت، فما زال هناك المزيد من البكاء والعويل.

وأثناء هذه الأعراس الدموية تفتح بوابة المنزل ويدخل أيوب، تنفجر زينب ببكاء يرافقه شيء من فرح لا مكان له وسط كل هذا القتل والموت؟ ينطلق نحو السلم ويسحب جثة سالم العالقة به ويمددها جانبا فينفر الدم من الجرح بغزارة ويغرق الجسد ببحر أحمر لزج، تقترب الأم من الجسد الدافِئ وتجلس فوق بحر الدم غير آبهة من الغرق وتحتضنه وسط بكاء خافت، فحتى البكاء ذلك اليوم فقدَ هيبته وأصبح حضوره باهتًا أمام عظمة الموت.

يبدأ أيوب بصعود درجات السلم بحذر شديد، ولم يكن بإمكان أبي سالم أن يحمي ظهر أخيه الذي غاب طويلا وكانت قد قيلت فيه الأقاويل واليوم عاد، لكن عودته كانت في التوقيت الخاطِئ.

يرجوه أبو سالم بألا يصعد أكثر، لكنه لا يسمع النصيحة.

يقاتل أيوب حتى تفلت البندقية من يديه ويتدحرج بثقله على الدرجات حتى يصل إلى أرض الفناء لكنه ما زال ينبض بالحياة.

أبو سالم يقوم بإطلاق ما تبقى لديه من الرصاص بشكل عشوائي هدفه التغطية على نفسه أثناء نزوله السلم علّه يتمكن من توديع أخيه العائد من فراغ الغياب للتو، انحدر عن الدرجات بحذر حتى تمكن من الوصول إلى أرض الفناء، وخطى نحو أخيه دون أن يفكر للحظة أن يخطو نحو سالم الممدَّد هناك، كانت زينب قد مزقت طرف ثوبها وضغطت على جرح عمّها على أمل أن توقف النزيف.

لماذا عدت الآن يا أخي؟

لماذا عدت؟ سؤال صعب، فهل يسأل من عاد ليدافع عن أرضه لماذا عاد! إنّه سؤال صعب بالفعل قد يتمكن جرح أيوب فقط من الإجابة عليه.

تسرّبت روائح الدم إلى أنف زينب، واختلطت بها رائحة الكعك المقدسي ورائحة التوابل والفواكه التي توزعت في سلال على طرف حوانيت القدس.

كان الزمن قد عاد بها إلى عمرها الغض عندما كانت ترافق عمّها إلى أسواق القدس، نسيت نفسها للحظات ونسيت جرح عمها وموت أخيها

وأزيز الرصاص وصوت الانفجارات وصراخ الأطفال وعويل النساء وحتى بكاء مريم التي تتشبث بطرف ثوبها وتصرخ وتمرغ وجهها الصغير بظهرها، غاب عنها هذا كلُّه بعد أن ابتعدت خطواتها وغاصت داخل عالمها البعيد.

تعيدها مريم من عالمها وتقذف بها إلى مشهدها المؤلم بعد أن شبكت أصابعها الصغيرة بشعرها وأخذت تشده بقوة طفل وتره أزيز الرصاص وصوت القنابل.

"أتذكر يا عمي... أتذكر عندما كنت أرافقك إلى القدس؟ أتذكر ذلك القرش العزيز؟ هل ستسمح لي بمرافقتك عندما يشفى جرحك؟"

ابتسم أيوب ابتسامة واهنة وقال بصوت مرهق ومتقطع:

"ليت الأيام تعود يا عمي".

ابتسمت زينب وغمزت عمها "هل تلك الشقراء الجميلة كانت حبيبتك يا عمي"؟.

هل هذا توقيتٌ مناسبٌ لسؤال كهذا يا زينب؟ لكنه الذهول الذي قد يغير من طبائع الإنسان لوهلة ما.

قطع حوارهما المتعرج أبو سالم عندما جلس واضعًا رأس أخيه في حجره، نسي جرح ذراعه، لم يبالِ للدماء التي لطخت قمبازه، دموع تسقط وتنتشر على وجه أيوب فتزهر مكانها ألف اعتذار واعتذار.

"قالوا لي بأنك خائن يا أيوب! بس أنا حلفتلهم بكل الصالحين إن ولاد الحاج أسعد ما بيخونوا."

انحدرت دموع حارة من عيني أيوب وقال بصوت له حشرجة:

"وراس أبوي إني ما عمري كنت خاين."

بدأت الروح تنسحب من جسده لكنه استطاع أن يسرق كلمتين متقطعتين من الحياة "أولادي.. الناصرة..".

طلب منه أبو سالم بأن يصمت حتى لا يزداد النزف، لكن الموت يا أبا سالم لا يمهل من اصفرت ورقته وسقطت للتو.

أسلم أيوب روحه وارتخى الجسد وتبعت العينان الروح فأغمضهما أبو سالم بباطن راحته ثم مرر أصابعه على وجهه الذي امتدت له يداه تلك الليلة، قبل جبينه، وارتفع العويل في بيت أبي سالم كما باقي بيوت القرية المذبوحة.

ازداد صراخ مريم التي ما تزال تقف متشبثة بأمها وعندما انتبهت زينب من غفلتها وتوهانها تذكرت مريم، وجذبتها ومسحت على شعرها واحتضنتها بيأس.

كان أبو سالم يتهيأ لحفر قبر لأيوب وسالم تحت زيتونة البيت لكن القنابل كانت أسرع منه، فقد باغتتهم إحداها عندما ألقيت داخل الفناء وتلتها أخرى وأخرى حتى تهدمت جدران كثيرة من البيت وتفرقت شظاياها في كل مكان فاحتضنت زينب ابنتها وضمتها بقوة إلى صدرها والتجأت إلى ركام أحد الجدران وتوارت خلفه، وتراءى لها أنين الجدران، أنين مقابض الأبواب، أنين الغليون الأبنوسي، أنين الجثث الذي عوى كذئب أعلن الحداد على زوجته بعد أن قتلها صياد.

لم تعد تعرف من الذي تربع في أحشاء الآخر، هي أم الخوف، هي أم الجبن، هي أم اليأس، هي أم المجهول، إنّها تائهة بين الركام ولا تعرف أيضا

من الذي يتوارى خلف الآخر هي أم هو، لم تعد تعرف شيئًا حتى مريم لو أنها اكتشفت بأنها غدت جثة من الممكن أن تتنكر لها.

نعم مريم جثة، مجرد جثة تغبطها جميع الجثث، فعلى الأقل هي في حضن أمها، أوليس أفضل من أن تموت خلف الأسلاك أو داخل بئر، هناك ستشعر بالبرد كثيرا، هناك لن تجد من يغني لها، كوني هنا وثيقة تُسقط الاستسلام يا صغيرتي لأنك هناك ستكونين حبرا لقلمين، أحدهما يحمل لون الغواية، تشبثي بحضن زينب ولا تتفسخي ابقي كالشمع هنا بين يديها.

صاحت بصوت مكبوت:

"أمّي، أبي لِمَ تتركاني أصارع هذه الوحشة لوحدي؟"

قالتها وصمتت بعد أنْ سمعت حركة وقع أقدام وصرير للحجارة المفتتة أسفلها، نظرت بعيون خائفة، متوترة، مترصدة، من خلال ثقب صنعته الحجارة المتراكمة فرأت بعض الجنود، واستطاعت التعرف إلى اثنين منهم، قام أحدهما بتوجيه رشاشه نحو الجسدين فتناثرت الدماء على الحجارة والأتربة، ثم دخل الآخر فأجهز بحربته عليهما وسط الألم والجراح، وتمتم بكلمات ثم أشار إلى الدم الذي ينزلق من أعلى الحربة إلى أسفلها، فقهقه البقية ثم غادروا.

"كيف كان شعور أمي عندما ماتت على فترات، هل دخلت الشظايا بحنان إلى جسدها المسكين أم أنها كانت متوحشة؟ والرصاصات هل تتبعت أثر الدماء وعند بوابة القلب توقفت لتفسح المجال لتلك الحربة ذات الرأس الحاد بأن تصل وتخرس نبضه؟ هل شعرت وهي تلتقط آخر

ذرات للأكسجين لتهديها لقلب لم يعد لديه الوقت بعد أن ختمت عليه الحربة أنه قلب انتهت صلاحيته؟"

كانت لا تزال تحتضن جثة ابنتها وقد أصابتها نوبة عصبية فأخذ جسدها يرتجف وهي تراقب خطواتهم تبتعد عن المكان، احتضنت مريم بقوة ولم تشعر بالدم الذي تسرب من بين خصلات الشعر الأسود الزنبركي، ولم تشعر أيضا بألم الشظايا التي انغرزت في خدها الأيسر، ولا بقطرات الدم التي كانت تخرج وتتجلط في مكانها، فكأنما مشاهد الموت التي رأتها عملت عمل المخدر مع مريض يتجهز لعملية جراحية.

تلاحقت الصور أمام عينيها أمها، أبيها، سالم، عمها، الجنود، البنادق، شظايا الزجاج المهشم، صرخت بصمت وهي تضم مريم وتغمض عينيها "يكفي..." تموء كقطة أضاعت جراءَها، تمتص حنجرتها بهذا المواء فلا مجال للأصوات العالية، ولا البكاء الفاجر، وإذا احتاج الأمر ستنكمش على نفسها وتبرز أشواكها، فلن تسمح للركام بأن يسخر منها، وسوف تتقمص صمته، فكم هو بارع ويتقن لغة الحكماء.

سكنت الجلبة في القرية بعد ظهر ذلك اليوم، وانتهت المعركة بمجزرة تكدست بها الجثث في الطرقات وداخل البيوت ولم تجد من يدفنها، فقامت العصابات بمحاولة لحرقها وكانت محاولة فاشلة فانتشرت رائحة الدماء مع رائحة شواط الأجساد.

غادر على جمر الألم من غادر إلى قرية عين كارم وتشرد أيتام القرية في شوارع القدس يبكون أبًا وأمًّا، ومنهم من بكى عائلته بالكامل، نعم بعض العائلات لم يخرج منها حي واحد.

كانت شمس ذلك اليوم قد أشرقت عن صباح رمادي قاتم على قرية كانت بين فكي كماشة، فمن جهة عصابة شتيرن والإرغون بدعم من العصابة الأضخم الهاجاناه ومن جهة ثانية نفاد الذخيرة.

قرية اغتصبت على حواف بنادق خانتها رصاصاتها.....

(8)

العاشر من نيسان العام (1948)

انتفضت دير ياسين من سريرها كعروس، انتفضت صبيحة عرسها تبحث عن عريسها الذي انسحب باكرا جدا ومضى إلى الموت، ليحمي كرامتها وراحت تفتش عنه بثوبها الأبيض الذي تزين بدماء العذرية الطاهرة، وها هو يتلوث بدماء خنازير ذُبحت أمام باب غرفتها، يلمحها ذاك الصباح فيزغرد لها بصمت، ويهمس لها بأن عودي إلى خدرك سيعود عريسك قريبا يحمل لك حمائم على أغصان الانتصار.

تشوه وجه القرية بالجثث المتناثرة هنا والمكدسة هناك، وارتوت الأرض من دماء أصحابها حتى تقيأت، وهي لا تزال خلف الركام تحتضن جثة مريم تهدهدها حتى لا تبكي، بقايا فتات الخبز المغمس بالرمال والدماء علق على جانبي فمها، شعرها المنكوش المترب وملابسها المتسخة وجسدها المتصلب كأنما أصبحت كتلة صامتة من الرمال.

تمنّت الالتصاق بذلك الركام أو حتى أن تكون ذلك الركام بذاته لتبدو أمام نفسها حقيقية، فقد غدت تلك الأنفاس التي تخرج منها فقط لتعود محملة باليأس الذي يخبرها بأنها مجرد شيء تافه يلتصق بشيء له قيمة محسوسة، شعرت بأنَّ كلّ ما حولها يسخر منها حتى الجثث الباردة ما فتئت تقهقه عليها، أخذت تشدّ شعرها وتنسل منه خصلاً رفعتها في الهواء كمن يرفع أوراق براءَته أمام المحكمة "آه لو أنني تعلمت لغة الصم والبكم، لكنت أوصلت لهم فكرة أنني جسد لا زالت الدماء تسير بداخله"، قالت

بصمت وأغمضت عينيها الحجريتين لتتجنب رؤية هذه النظرات العارية التي تشدها نحو واقعها الذي ترفضه بكل جوارحها، فكيف ستقتنع بأنها تحتضن جثة، وأن قريتها ماتت؟

ضمت إليها مريم ودفنت نفسها في قبر الوهم وتجنبت حاجز الواقع خشية الارتطام به.

لكن الواقع هو الحقيقة التي لا بدّ منها، فها هي تجلس هناك وترتعد كلما سمعت أصوات قهقهاتهم القادمة من أمام البيت، تتجمد أوصالها عندما تشعر بدخولهم، تكتم أنفاسها وتحاول قمع طبول الخوف التي بدأت تصدر ضربات عنيفة.

انتهكوا حرمة الغرف التي غاب أصحابها، قلبوها رأسًا على عقب يبحثون عن مصاغ وأموال أهل البيت الذين غيبهم غدر رشاشاتهم ومدافعهم، نهبوا كلّ محتويات البيت حتى المونة المتبقية من شتاء هذا العام وأثواب أمها حتى إنَّ إحدى المجندات لبست ثوب زوجة أخيها جميلة وصارت تستعرض أمام الجنود كبهلوان في سيرك، وهم يقهقهون بأصوات عالية.

وهي تراقب ودموعها تنساب على وجنتيها وتحرق الندب الطرية في وجهها.

عندما استولوا على كلّ شيء خرجوا متباطئين من شدة ما سكروا، كيف استطاعوا أن يكونوا بشراً طبيعيين مع كل هذا الكم من الجثث التي لا تزال تتناثر من حولهم.

بعد أن تأكدت من ذهابهم وشوشت مريم:

"يمه ما بدك تصحي؟ أول مرة بتنامي هالقد، قومي نلعب لعبتك اللي بتحبيها، إنت بتتخبي وانا بدور عليك."

كيف تطلب من جثة أن تستيقظ؟ مريم التي بدأت رائحتها بالتسرب، ألم تشمها زينب؟ أم أننا قادرون على تعطيل حواسنا واستخدامها حسب أمزجتنا؟

جاء الليل باكيا وأخفى تحت ستاره مشاهد القتل في مسرح الجريمة وتوارت الأضواء من المكان، وحدها أزهار اللوز تساقطت وزحفت لاهثة بقلب يخفق نحو جثث أصحابها وغفت بجوارهم.

(9)

الحادي عشر من نيسان (1948)

تمتمات تصل إلى اذنيها ذلك الصباح، أحدهم يحاول الدخول إلى الفناء مع محاولة منع له من قبل الجنود، فتثور ثائرته عليهم ويدخل رغما عنهم.

يدخل أرض الفناء ويقترب من الجثث يتحسّسها، إنها باردة وأكثر برودة من ذلك الصباح، جثث لأجساد فارقتها أرواحها واستلت معها حرارة الحياة، خطا نحو الغرف التي تهدمت أكثر جدرانها يتفقدها، فوقعت عيناه عليها، لمحته فشعرت برعب شديد عندما وجدته يحدق بها ويحاول تجنب الحجارة المتناثرة هنا وهناك ليصل إليها، استجارت بالركام ليحميها، لكنه أحمق صامت لا يستطيع حماية نفسه، وبالرغم من تلك الحقيقة إلا أنّها التصقت به أكثر، قلبها يدق بصوت مضطرب.

(إنه يقترب يريد سرقة مريم لا، لن أسمح له، سأعرض عليه ندبي وإذا رفض سأقايضه على جثة أبي وأمي).

أغمضت عينيها علّه يختفي في زوايا الظلام، تجاهلت صوت صرير أقدامه القادمة باتجاهها وقد ظنت بأن زوايا الظلام في عينيها قد التهمته.

شيء بارد يحط على كتفها، تفتح عينيها وتصرخ "لا لن أسمح إنها لي وحدي".

يكلمها بالإنجليزية وقد كانت تتقنها، ويخبرها بأنه ممثل الصليب الأحمر جاء لمساعدة من لا زال على قيد الحياة، ويطلب منها أن تناوله مريم، فتتمنع وتتمسك بها أكثر من ذي قبل، يحاول معها ويطلب إليها أن ترافقه من أجل الاطمئنان على صحة الصغيرة، وكان قد اكتشف بأن الأم تتمسك بجثة تصلبت وفاحت رائحة الموت منها، لكنّه يجاريها ليقنعها بالخروج.

وبعد جهد منه لا تجد أمامها خيار لتخرج من هنا إلا عن طريق مرافقته. ها هي تسير إلى جانبه وعند البوابة يوقفونه ويحاولون منعه من أخذها، تلتصق به وأوصالها ترتجف، وبينما هي ترتجف وتنقل نظراتها بين الجثث والدمار الذي أصاب قريتها، كانوا هم يقضمون شطائر المربى غير آبهين للموت من حولهم، فما كان منه إلا أن قام بلكم أحدهم وسارع بإيصالها إلى سيارة الإسعاف التي كانت ترافقه.

وهكذا خرجت زينب من قريتها وكان آخر عهد لها بها، فهل ستعود لتستنشق هواءَها يومًا؟؟؟؟؟؟؟؟

القسم الرابع

امنحيني أيتها الحياة مرسى على شواطئك لترسو بها سفني، فشواطئي ما عادت تعرف مراكبها... وشعث الوحدة يقتلني... يغرقني في بحر بلا معنى..
تقذفني أمواجه الباهتة على شواطئ الضياع كعلبة سردين منتهية الصلاحية.....

(1)

العام (1958)

شاهدت عمّها بكرًا في المنام يحمل قنديلاً عظيمًا أنواره تسطع كالشمس يعتلي فرسًا عربية بيضاء بذيل طويل، وعرف جميل يتبعه آلاف الفرسان على خيول منها الأسود والأحمر، يحملون قناديل أصغر من قنديل عمها، يشقون بها الظلام الحالك والخيول تحمحم وتصهل وتجري تاركة خلفها غمامات من الغبار الذي أثارته حوافرها، فيلكزونها بمهاميزهم ليسرعوا من خطواتها متوجهين إلى القدس.

انتبهت من نومها وكان الوقت فجرًا على أصوات تشبه تكبيرات العيد، فهرعت إلى النافذة المغلقة وألصقت جانب رأسها بها وشنفت أذنيها، فاستطاعت سماع أصوات تتعالى، إنّه صوت الأذان، فارتسمت ابتسامة على شفتيها وقالت: "هل اندحر اليهود؟ هل انتصر المسلمون؟ هل سأعود إلى دير ياسين."

كان اليوم هو موعد قدوم ناجي وخروجها من هذا المنفى الذي عاشت به عشرة أعوام، حيث عوملت كما يعامل الحيوان، أعاد ناجي لها إنسانيتها.

لم يخلف يومًا ناجي موعدًا له مع زينب، وها هو يأتي في موعده حاملاً لها البشرى بأنه حصل على أخبار تفيد بأن عائلة عمّهم أيوب موجودة في الناصرة.

(2)

رفضت ركوب سيارة أو أية مواصلة توصلها إلى حيث سيلتقيان بعائلة عمّها، وفضلت السير على الأقدام لأنّها أرادت أنْ تتنفس هواء فلسطين.

إنّها عشر سنوات، كلّ شيء تبدّل والتفاصيل لم تعد تشبه نفسها، الأرض أصبحت بلا ملامح والمباني الجديدة توزع ابتسامات ماكرة على بعض المارة، الكلمات على اللافتات كأنما دخلت لعبة الحروف فتبدلت العربية وتحولت إلى العبرية، كلّ شيء مختلف حتى روائح الشوارع تغيرت، أعمدة كثيرة زُرعت على جانبيها كجواسيس معلنين، مصطلحٌ غريبٌ وجديد فالجواسيس عادة يختبئون خلف أسماء وتواريخ وهمية.

حدقت في وجوه المارة فبدا لها البعض وقد حمل خريطة في وجهه والبعض الآخر لم يحظَ بخريطة، وقفت لوهلة لتتأكّد من ناجي إنْ كان يحمل واحدة أم لا، يا إلهي إنّه لا يحمل أية ملامح لخريطة.

فتحت حقيبة يدها وسحبت منها مرآة لتتأكد من وجهها إنْ كان لا زال يحمل واحدة أم لا! وكانت صدمتها عندما حدقت في المرآة فوجدت نفسها وجها لوجه أمام خريطة لوطن مهشّم، بدا لها وهو ينسحب إلى المجهول.

فسارعت بارتباك وأعادت المرآة إلى الحقيبة قبل أن تشهد فقدانه بالكامل.

سارا مسافة عمر كامل من الخيبات، وعندما قاربا على الوصول توقفت فجأة وتوقف ناجي والتفتت إليه وقالت:

"أتعلم بأننا هنا حيث حدث ذلك المخاض الذي كانت نتيجته مولود يشبه كتلة العجين عندما تجفّ! إنه مشوّه وبالكاد يمتلك عينًا وقدمًا وثلاثة أصابع، وربما أكثر من ذلك وربما أقل، في العادة يولد مولود كهذا نتيجة انقسام خاطِئ للخلايا، وربما بسبب شيء آخر مثل دخول جسم غريب يفرض نفسه بسرعة لأن أحدهم أعطاه وعدا بذلك..."

سارا مرة أخرى لكنها خطوات قليلة، فإذ بهما وجها لوجه أمام (بوابة مندلبوم[3]) يحدقان بالقادمين، فقالت والدموع تنسرب من عينيها:

هنا رفض الحبر الأخضر والأحمر بأن يمتزجا، فكيف قبلنا بأن نمتزج بهما؟؟؟؟؟؟؟؟؟

انتهت في

2019 /9 /29

بديعة النعيمي

3 – حاجز سابق في القدس بين الجانبين الأردني والإسرائيلي، وقد أصبح رمزاً لتقسيم المدينة.